Princeton University Library
32101 060155551

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

This book is due on the latest date stamped below. Please return or renew by this date.

خواطر

تاليف

محمد بن محمد ابن الحاج السلمى المرداسى

قاضى شراكة وما اضيف اليها

حفظه الله

الجزء الاول

1948 — 1367

حقوق الطبع محفوظة للمألف

مطبعة النهضة

بفاس

لصاحبها

محمد سالم بن على بن ابى عبد الله

Mir-dast

خواطر

تاليف

محمد بن محمد ابن الحاج السالمى المرداسى

قاضى شراكة وما اضيف اليها

حفظه الله

الجزء الاول

مطبعة النهضة

بفاس

لصاحبها

محمد سالم بن على بن ابى عبيد

(RECAP)
BP161
.M572
1948
v.1

فهرست الكتاب

مقدمة بقلم المؤلف
قيمة الثقافة في نفس المثقف
النجاح والفشل
التجديد
التجديد فى نظر علماء الدين
الجهد وقيمته
اسباب الرحلة عند العرب
العزيمة المحمدية
صلة الانسان بالجمال
فكرة داروين عن الاصل البشرى
التخصص وبعض مظاهره فى الثقافة العربية
الادب العربى فى رعاية امرائه
اثر العقل فى الجسم
العبقرية والنبوغ واثر الوراثة فيهما
طبيعة الشرف فى الحياة المادية والادبية

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY DUPL
32101 021837507

بسم الله والصلاة والسلام على محمد بن عبد الله

مقدمة

— بقلم المؤلف —

انه لرأى جديد، ونظريات علمية، وانه لتطور رائق فى عالم الفن والادب، وانها لسريرة نفسى اقدمها لقارئي العزيز فى صراحة ووضوح.

فان قدر لذوق القارء ومزاجه ان يرتفعا لغاية ذكاء الكاتب وتميزه، فسيحلق معى ساعة فى اجواء المثل العليا، والغايات الشريفة، وسيفرغ من قراءة هذه المجموعة وهو يقول ما افيده لا ما ابرعه وامهره.

ان العلم والادب لايختلفان فى غايتهما التى هى الكشف عن حقائق هذا الكون، ودراسة نفسية الانسان وغايته فى هذه الحياة وامله فيها، مع ما يلابسه فى ذلك من نظم اجتماعية، وفلسفية ودينية واخلاقية.

ولذلك نرى جل ادباء العرب — فى القرن الاول والثانى — مجتهدين فى الادب والعلم معا، يبحثون الادب، ويتقيدون باصول الدين، ويدرسون العلم ويستلهمون الادب.

فكانوا يبتكرون ويستنبطون ، وكانوا يعبرون عن احساسهم النفسى وذوقهم العقلي ، وكانت الامة مطبوعة بطابع ادبائها ، متلون ذوقها بلون ثقافتهم ، مسبوغة نزعاتها بنزعات أفكارهم فمضى القرن الاول والثانى وبعض الثالث ، واذا الادباء — قادة الفكر وزعماء النزعات — يجترون ، فيا كل جديد ادب امتهم قديمه ، ويقلدون ، فتقصر حركة اعمالهم عن الانتاج المطلوب ، ويطلقون شؤن الحياة فتنفرج الهوة بينهم وبين غرض النوع الانساني من الحياة

والآن وقد تداركتنا النهضة الحادثة ، وراينا الادب ينقد الانسان ، ويرسم له المثل العليا ، ويستكنه فيه اسرار الكون وخفاياه ، وبدأ الادب يتغدا مما حوله فيخط للامة طرق مجدها ويدلها على نفسها ، فيذكرها بماضى عظمتها ويبرز لها فى ابدع صورة باسم مستقبلها .

رايت ان اتقدم لقراء العربية بهاذه المجموعة الادبية او الخواطر الفكرية ،.

متجنباً فيها العناية بالعبارة المونقة او الجملة المنسقة ، والاستعارة الطريفة والتشبيه الرائع ، وعاملا على ان لا تزيد فيها الالفاظ عن المعانى المقصودة ، وان تكون غايتها الافادة لا المهارة فى تنسيق الكلمات والاجادة ،.

فعسى الله ان يجعله فاتحة خير لعهد حميد ومستقبل زاهر ويخلد مجد العروبة فى طالع سعدها الباسم وسر عظمتها الباقية مولانا امير المومنين ، ويقر عينيه باشباله الامراء الكرام والسلام ؟

قيمة الثقافة فى نفس المثقف

ان لمختلف الشهادات التى ينالها المثقف ، ويرصع جبينه بها كده المتواصل ، درجات امتياز ورتب تفاوت بحسب قيمة الشهادة وبعد ما بين درجاتها ومكانة اعتبارها ، والناس تختلف انظارها للمثقفين بحسب ذلك التفاوت وبعد ما بين تلك الدرجات ، وقد يكون حامل الشهادة الثانوية مثلا اغزر فهماً واذق معرفة من حامل الشهادة النهائية ، وقد يكون هناك اختلاف بين حاملى الشهادة من نوع واحد ، ولكن الناس جبلوا على تسوية ما بين الطبقة الواحدة ، وعدم التفاتهم الى اختلاف ما بين افرادها ، ولهم العذر فى ذلك لانه لم يخترع — والى الان — مقياس دقيق يوزن به الفكر ، وتعرف بواسطته درجات الاستعداد فيه معرفة صحيحة

تلك نظرة الناس للمثقف ، وتلك مكانة الثقافة — من وجه — فى الناحيتين الاجتماعية والمادية ولها قيمة اخرى تتصل بنفس المثقف ، وترتكز فيه شنشنة وطبيعة ، تلك هى نظره للعالم من وراء ثقافته ، ومشاهدته لما يحسن فيه ويرى من خلال نفسه وسمو معرفته

فقد يتفق الناس فى حكمهم على الاحجام كبراً وصغراً ، وفى حكمهم على الالوان حمرة وصفرة وغيرهما وعلى الابعاد قرباً وبعداً ، وكل ذلك باعتبار نظرهم الحسي ، اما نظر النفس وحكم القلب ، فهو

مختلف كل الاختلاف عن ذلك كله ، ومن المستحيل ان يتحد شعور الناس فيه ، ويتساوى مبلغ تقديرهم لدرجته ، اذ هناك الفيلسوف ، وهناك النبي ، وهناك الحكيم وهناك الاحمق

على ان للشيء الواحد معان متعددة ، وحيثيات مختلفة ، وكل من المعاني والحيثيات متسلسل فى الرقى ، مختلف في الدرجات والقيم ، يتفاوت ادراك الناس له على حسب استعدادهم وعلى قدر ما لهم من السمو الفكري والعقلية الناضجة

فنظرة اديب فنان وشاعر عبقري ، يلقيها على روض قد تفتقت افنانه ، وتمايلت على رقة النسيم رياحينه واغصانه ، ليست هى نظرة الرجل العادي ، متبلد العقل سقيم الفكر فذاك ينظر اليه فيقرء فيه من معانى الحسن وآيات الجمال ما يمتزج بنفسه ، فيسيل قطعاً سحرية بديعة من قلمه ، وذاك ينظر اليه ويراه ومن وراء عقله البليد الجامد فيراه مبهما غامضاً لا يسفر عن اي معنى جميل او يوضح وجهة ما

ومنه ما حكى عن عيسى عليه السلام انه مر واصحابه بجيفة منتنة فقال رفقاؤه ما اخبث رائحتها وقال هو ما احسن بياض اسنانها

وهاكذا تختلف نظرة النفس فى الانسان لدى كل شيء يقع عليه البصر ، او يتوجه اليه النظر سواء كان ارضياً او سماوياً

وبحسب ما وهب الله النفس من نور الحكمة ، واسبغ عليها من قداسة المعرفة وجلال العلم ، تكون قيمة اعتبارها لما تشاهد في هذا

الكـون وتراه من بديع الايات ، وصنوف باهر المعجزات ، ويكون كذلك بحسبه قدر انفعالها ، ومبلغ تاثرها ، وارتسام ذلك فى صميمها

وليس النضوج الفكري ، وغاية الرقى العقلى ، اللذان هما معنى الخلود وسر العظمة ، غير مظهرين من مظاهر هـذا الاختلاف فى الشعور بالغايات البعيدة ، والتقدير لما انطوت عليه النفس البشرية من سر حكيم

فالمرأة — مثلا — اذا نظر اليها العادي على انها بهية الجمال ، جذابة المحاسن والاوصاف ذلك لتناسب اجزائها ، ورقة اطرافها ، فغيب عنه الحسن ، وكان كما قال المتنبي في الخيل

وما الخيل الا كالصديق قليلة * وان كثرت فى عين من لا يجرب

اذا لم تشاهد غير حسن شياتها * واعضائها فالحسن عنك مغيب

نعم اذا نظر اليها العادي كذلك . كان نظر المثقف ابعد منه مدى واسرع خطى اذ هو يرى حسنها لا فى ذلك فقط ، بل فيما ينظره في وجهها من بدائع الصنع الحكيم ، والدلالة البالغة على قدرة الله التي سوت الانسان فخلقته فى احسن تقويم ، وفيما شعر به فى نفسه — وهو بجانبها — من رقة تهدي ، من ثوران عاطفته ، وتجعله متزنا فى تفكيره ، عادلا فى خططه التى يرسمها لنفسه ، والتي يمكن ان يواجه الناس بها فى الحياة

وها كذا فنظر الانسان الى الحياة ليس كقوالب جامدة ، كل

منها مستقل بنفسه محدودا بحدوده ، بل كسائل لطيف ، مهما اتصلت الحرارة بجزء منه عمت جميع اجزائه ، ومهما وقعت نقطة فيه من اي لون شع ذلك اللون فى سائر اجزائه ايضا ، بل النظريات الفكرية هى اذق من ذلك السائل واكثر منه قابلية للامتزاج ، اذ امتزاج السائل بما وقع فيه قاصر عليه ، وذلك بخلاف النظر الراقى اذا وقع على شيء ، فانه يؤثر رقيا فى سائر النظريات ، ضرورة كون نظر الانسان الى الحياة ، متاثر بنظره الى نفسه ، ونظره الى نفسه متاثر بنظره الى الحياة ، وهذا ما يجعل الثقافة فى ناحية من نواحى العلم تشع ضوءاً على سائر الوان المعرفة ، قال بعضهم ان رقى الامة فى الموسيقى وتذوقها للصوت الجميل ، والغناء الجميل ، يجعلها تتعشق المفاخر وتابى الهوان

الواقع ان الفكرة الجديدة تدخل الفكر فتقلبه راسا على عقب وتتجه به اتجاها جديداً ، وتلك سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا

النجاح والفشل

من بين ما نشاهد فى هذا المجتمع الانساني ، وتراه اعيننا صباح مساء ، طائفة من الناس حالفها السعد ورافقها النجاح ، وواتاها الحظ فى كل ميادين الحياة ، فالمعالى قد انساقت لها طوعاً او كرهاً والدهر قد احلها فى الذروة ، فكانه استثناها من صروفه ، وحذفها من قائمة ما كتب الله على البشر من بؤس ، وقدر عليه من شقاء

فالنجاح عند هاؤلاء مطرد ، والفوز متوالى مستمر ، والمعالى فى قبضة اليمين ، فهم فى الحياة المدرسية دائما فى طليعة الصفوف ، وهم ايضاً فى مقدمة الناجحين ، وهم بعد التحصيل ونيل الشهادة من اصحاب الوظائف العالية ، والمراتب السامية القعساء

وهناك وعلى العكس طائفة اخرى رافقها الفشل ، وعاندها الدهر بصروفه ، فلا تخطوا خطوة الا وترجع من حينها عوداً على بدء ولا تنتهى من رزية الا وتستانف اخرى هى اشد منها اثراً على النفس وارسم لديها وقعاً

ويرافقها ذلك ـ ونسال الله السلامة ـ حتى فى ادوار طفولتها ، ومرتع صباها ، فهى فى المدرسة فى اذناب الفرق واخريات الجماعات ، وهي فى الحياة الاجتماعية ذات نحس مستمر ، هيهات ان تجد عنه مفراً او ترى منه والى اي سبيل مهرباً

وقد توجد طائفة اخرى استوى نحسها وسعدها ، وجاملها الدهر بقدر عناده لها ، فكانت كما قال الشاعر : فطوراً سرور وطوراً حزن او كما قال الاخر : فيوماً نساء ويوماً نسر اوعلى وتيرة ما درج عليه ابن زيدون فى سينيته المشهورة

ما على ظنى باس * يجرح الدهر وياس

فما السبب ياتري فى هذا الاختلاف ، ولاى شيء يرجع تعليل هذه الظاهرة الاجتماعية في الانسان

الحق انها ترجع لاسباب تافهة ، وحوادث صغيرة وصغيرة جداً ، منها طبيعة التفاؤل والتشاؤم فى الانسان

فما من فرد نراه من افراد الطائفة المحظوظة ، الا ونراه وله ثقة فى نفسه ، وامل قـوي باسم بحسن مستقبله ، فهو اذا تقدم للامتحان — مثلا — يتقدم اليه وكله يقين بنجاحه فيه ، وتفوقه عالياً على سائر اقرانه وجميع مشاركيه ، فليس هناك في نظره من يساويه ، بله من يتفوق عليه او يدانيه فهو مطمئن للغاية التى يعمل لا جلها ، مستبشر بجمال طالعها وحسن سعدها ، فاين اذ ذاك صدمة الموضوع من نفسه الجبارة ، واين تهويل الرفاق من العزلة التى ملأت قلبه ، والعظمة التي شغلت فكره العالى وعقله المنيف

اذا مضر الحمراء كانت ارومتى * وقام بنصرى خازم وابن خازم

عطست بانف شامخ وتناولت * يداى الثريا قاعـداً غير قائم

فهو اذ اومع هذا فى الغالب محظوظ وهو معه ناجح وظافر ، وكذلك العمل فى كل ادوار الحياة ، واطوار العيش فيها ، مع تقلبات الايام واسترسال الدهر

حكى ابو عثمان عمر ابن بحر الجاحظ فى كتابه المحاسن والاضداد انه كان باليمامة رجل من بنى حنيفة يقال له جحدر بن مالك وكان لسناً فاتكاً شجاعاً قد اثر على اهل هجر وناحيتها فبلغ ذلك الحجاج ابن يوسف فكتب الى عامل اليمامة يوبخه على تلاعب جحدر به ويامره بشدة التحري فى طلبه ، فبعث العامل الى فتية من بنى يربوع بن حنظلة فجعل لهم جعلا عظيما ان هم قتلوا جحدراً او اتوا به اسيراً ووعدهم ان يوجههم للحجاج ويسني جوائزهم فخرج الفتية فى طلبه حتى اذا كانوا قريباً منه بعثوا اليه رجلا منهم يريه انهم يريدون الانقطاع اليه والتحرم به ، وفعلا فقد وثق بهم واطمان بوعدهم فبيناهم معه على ذلك اذ اخذوه غرة فشدوا وثاقه وقدموا به على العامل فبعثهم به الى الحجاج وكتب يثنى على الفتية فلما قدموا عليه قال له انت جحدر قال نعم قال ما حملك على ما بلغنى عنك قال جراءة الجنان والايمان بالنصر والظفر ، قال ويلك ما الذى بلغ من امرك حتى يتجرء جنانك وتومن بالنصر والظفر قال تلك غريزة تضمن العز وفطرة لا بد معها من النصر ولو بلانى الامير لسر ، قال الحجاج انا قاذفوك فى قبة فيها اسد فان قتلك كفانا مونتك والا ابقينا عليك ووصلناك قال جحدر اعطيت

اصلحك الله الامنية واعظمت المنة واذ ذاك امر به الحجاج فاوثق بالحديد والقى فى السجن وكتب الى عامله بكسكر يامره ان يصيد له اسداً ضارياً فلم يلبث العامل ان بعث له باسد ضارية فجعل الحجاج واحداً في تابوت يجر على عجلة ووضعه فى اسطبل وامر به فاجيع ثلاثاً ثم بعث الى جحدر فاخرج واطلق من اغلاله ثم اعطى سيفاً وادخل علي الاسد واذ ذاك انشأ يقول

ليث وليث فى مكان ضنك * كلاهما ذو انف ومحك
وصولة فى بطشة وفتك * ان يكشف الله قناع الشك
الذيب يعوى والغراب يبكى

ثم تقدم اليه حتى كان منه على قدر رمح ، فتمطى الاسد وزأر ثم حمل عليه فتلقاه جحدر وقد تلطخ بدمه من شدة حملة الاسد عليه فكبر الناس ، وقال له الحجاج ياجحدر ان احببت الحقناك ببلدك وان احببت الاقامة عندنا اسنينا فريضتك قال اختار صحبة الامير وانشا يقول

ياحمل انك لو رايت بسالتى * في يوم هيج مردف وعجاج
وتقدمي لليث ارسف حوله * حتى اكايده على الاحراج
ففلقت هامته نخر كانه * اطم تقوض مايل الابراج
فلئن رمتنى الى المنية همتى * انى لخيرك بعد ذلك راج

فانظر الى قول جحدر فى جواب الحجاج جراة الجنان والايمان بالنصر مع قوله فى القصيدة التى يفخر بها :فلئن رمتنى الى المنية همتى اليس

هو يرى فى العزيمة الصادقة ضماناً للنصر وكفيلا بالنجاح والظفر وعاملا قويا فى تكوين الشخصية الجبارة والعبقرية الناضجة

وكم فى الادب العربى لو استقصينا البحث من مثل هذه النزعات التى توضح او تبرهن على كثير من هذه النظريات العلمية والاسس العرفانية تلك التى يعتقدها كثير من علماء النفس واصحاب البحث فى العوامل التى تظافرت جهودها علي تنشئة الانسان وتقدمه وتدرجه عاليا فى مهيع الكمال المنشود والغاية البعيدة هذه النزعات التى تجرى عفواً علي السنة الادباء وينطق بها فحول الكاتبين والشعراء حيث تهديهم اليها الفطرة السليمة والقريحة المتوقدة ، ولو انتبه اليها الباحث المذقق لوجدها قاعدة من قواعد العلم ودعامة من دعائمه القوية شاء لها القدر ان تكون درة خارج صدفها ، وجوهرة نفيسة في غير مضانها

وكذلك فالوهم يمثل فى النفس حقيقة واقعة يزودها الخيال بكل ما ينقصها من الزوائد والحواشي حتى تتجسم وتكمل خلقتها فاذا الوهم حقيقة واقعة وشيء محسوس لا مجال لاحد عن الانقياد اليه ولا مناص من الاذعان لما يوجبه و يفرضه

وقد ضربوا على ذلك مثلا هو في غاية البساطة ولا كنه يوضح ما اشرنا اليه سابقا اتم وضوح واجلاه وذلك كما اذا وضع احدنا على بساط الارض قائمة ممتدة من خشب ثم اراد المرور عليها فانه

يمكنه ذلك وبكل سهولة دون ان يتعثر اويرتبك ، وهو علي العكس فيما اذا وضع هذه القائمة نفسها فوق هوة عميقة كشاهق جبل مثلا ثم اراد المرور عليها فانه ولابد متخيل للسقوط خائف من الوقوع في قعر تلك الهوة السحيقة حيث تتحرك منه العضلات وتتكمش الاعصاب ويجمد الدم وفى الحين ينتهي به الامر بما يكون سقوطا حقيقيا

وكذلك الحال في جل الاعمال وجميع ما ياتيه الانسان في هذه الحياة فهو مهما توهم الفشل وخاف على نفسه السقوط واخذ يتردد فى النتيجة الحسنة والغاية المرجوة الا وهو خائب ومهما تفاءل وانبسط وانشرح قلبه وَاقبل على العمل واثقا بالنجاح فيه وَكان النجاح بالنسبة اليه فى حدود الممكنات الا وهو ظافر وناجح والله يهدى من يشاء الى صراط مستقيم

التجديد

لابد لكل امة من الامم — مهما بلغ مستوى رقيها ومهما سجل لها التاريخ من ءايات فخر واعجاب ان تمر عليها فى يوم من الايام ادوار انحطاط واطوار بؤس وشقاء « سنة الله ولن تجد لسنة الله تبديلا »

فبينما تبصر الامة وقد استكملت وسائل تقدمها وبلغت الغاية فى ميدان التطور والنشوء لايريعك منها الا وقد غرقت فى بحر لجى من الترف واللذة واسلمت نفسها لتيار الحضارة الجارف وغازى الترف والنعيم — واذ ذاك — فما هى الا عشية او ضحاها حتى تسفر النتيجة ويرفع الستار عن تقلص ظلها والرجوع بها خطوات عن مركزها الدولى وموقفها العالمى العظيم

وتلك هى النكبة التى حلت بابائنا عرب الاندلس رحمهم الله بعد أن ازدهر العمران بربوعهم واشرقت عليهم شمس الحضارة العليا وغمرتهم اشعة المدنية الحقة فكانوا سادة العالم والمالكين لازمة الامور فيه وكانوا فخر التاريخ البشري والمحصلين فيه على أمتن وشائج العظمة وأخلص ءايات الاعجاب والتقديس

ولا كنهم ما استكانوا — أو كادوا — لغايتهم تلك وطمأنوا

اليها حتى سحرتهم نظرة النعيم ودعاهم داعى الهـوى والترف فتفانوا في طاعتـه منغمرين وانقـادوا اليه فرحين مستبشرين حيث أبدلوا بالمساجـد اندية وبحلقات العـلم ودروسه مجامع الخنى وحانات الفسق والفجور فما لبثوا غير قليل حتى استاصلهم العـدو ودمر بلادهم ومـا كانـوا يصنعون واصبحت معالمهم منـدثرة وبيـوتهم قاعاً صفصفاً لا ترى فيها طللا ولا تانس اثراً

وهـذه ظاهرة من ظواهر الـكون خضعت لها الامم منذ فجر التاريخ البشرى وجرت مع الحياة سنة لازمة وطبيعة من طبائـع الكون بيد ان غايتها تختلف باختلاف مبلغ ذلك الانحطاط الذى انتهت اليه الامـة في الذى فقدت من حياتها الاولى ونضوجها السياسى المتقـدم

اذ مرة يأتى الانحطاط على ادوار سياستها واطـوار عـوائدها ومظاهر قوميتها واخرى ترجـع الى الوراء ولا كن في بعض مميزاتها فقط وقليل من نضوجها السياسى الاول

وهذه الاخيرة هى التي يمكن ان تاثر فيها عوامل التجديد وقـوانين الاصلاح الوضعية وغـير الوضعية اذ هى امة وان فقدت — كما قلنا — بعض مميزاتها فهى ذات شعـور كامن واحساس عميق بسالف سيادتها وبائد مجـدها قـد يتاح لها اعـلانه متى هيا الله لها

مصلحاً عظيماً ومجدداً قويماً ومتي كانت الظروف صالحة والسعد مواتيا

ثم ان التجديد سنة من سنن الكون فى هذه الحياة سواء في النبات والانسان او غيرهما كالجماد . فالانسان تفنى ذارته الروحية الحيوية عن مدة معلومة ويتجدد تكوينها بخلق ذرات اخري قابلة للنمو صالحة للحياة يمكنها مقاومة الفناء الى وقت تعجز فيه كسابقتها فتضمحل وهاكذا الى الموت وسابقية الخلود

وكذلك النبات فهو جسم ذو حياة كالحياة الحيوية يطرأ عليه التجديد فتسرى فيه روح الحياة فيهتز ويربو حاملا من الفواكه والثمار ما تغلو به قيمته ويعجب الناظرين وما يكون ءاية حقة للعالمين والمتوسمين ، ذلك بما تعمل فيه يد الباحث المنقب من تشذيب لاغصانه وقلع ما يبس اوفسد من نباته مع ما يتعهده به محراث الحارث الذى يقلب الارض ظهراً على عقب ويهشم تربتها الزكية كى يتسنى للنبات ان يزهو بها ويزهر ويمرح فى لونها الطبيعي الساحر الجذاب

اذاعلمنا هذا وذاك وكان لا فرق بين المعقول والمحسوس علمنا وان لا بد لاخلاقنا وعاداتنا حيث شاخت واشرفت على الاضمحلال من التجديد الحى والتطور الرائق المعجب ، علمنا وان لا بد لها من تغيير لما هي عليه من الجمود المريع والاستسلام الاعمى والركون الى كل شيء يوافق النفس والهوى ولو باين المبادىء الدينية والعقائد التشريعية الاولية الامر الذى قضي علينا بالتاخر فى كل شيء يروق

تقدمنا فيه واخذ بيدنا الى حيث المفاسد الدينية والاجتماعية الى حيث الاخلاق الفاسدة المنحطة دينياً وادبياً الى حيث التنافر التام والشحناء والبغضاء والبذاء فى القول والغلظة والفظاظة والذهاب بالنفس الامارة وعند ما يجب خفض الجناح وليونة الجانب

حيى الله ذلك العصر الذهبي وبياه عصر ءابائنا الاولين وسلفنا الصالح رضى الله عنهم يوم كانوا وقد نزع ما فى صدورهم من غل وقلوبهم من احقاد ومحى منهم داء الكبر ومرض العجرفة فكانوا اخوانا الفت بينهم الروح الدينية وربطتهم الرابطة الاسلامية الكبرى فاستنارت بذلك قلوبهم وناطحت همة هممهم قبة السماء واديم الرقعة الزرقاء حيث حلقوا بها فى تلك الاجواء الفسيحة واتصلوا من عالمهم الارضى بالعالم العلوى واخذت نفوسهم تتطهر من ادران النزعات المغرضة والغواية الحمقاء وتنشرح لقبول السعادة العليا التى هى اتصال الانسان بالملكوت الاعلا واعراضه عن باطل الحياة وزخرفها الاهوج فكانوا يتعاطون المهن الشريفة على اختلاف انواعها من تجارة وصناعة وحرفة ثم لا يضع ذلك من نفوسهم اولا ولا يصرفهم عن مجهوداتهم الدينية ثانياً

حدث ابو عمر الجاحظ فى كتابه المحاسن والاضداد ان ابا بكر وطلحة وعبد الرحمن بن عوف كانوا بزازين وفى البخاري ان سعد بن ابى وقاص كان يغدق النخل وان اخاه كان نجاراً وذكر ابو قتيبة

ان الوليد ابن المغيرة كان حداداً . وذكر الجاحظ ايضاً ان عثمان ابن طلحة صاحب مفتاح البيت كان خياطا وزيادة فقد ذكروا ان مالك ابن دينار كان وراقا وان ابا حنيفة كان خزازاً وان العاص ابن وائل كان يعالج النخل والابل وان اباسفيان بن حرب كان زياتا

وكذلك كان اباؤنا فى الدين رضوان الله عليهم يحترفون ويتجرون ويتعلمون ويعلمون لا يذهب واحد منهم فى تقديره لنفسه الى البعد بها عما لا يمس الكرامة الدينية ولا يتنافى مع الاخلاق الفاضلة والشمم العالى المنيف

فما كانت الاخلاق الرفيعة عندهم هى شراسة الطبع وفساد الطوية وانما كانوا والحكم كما يقولون للغالب اخوانا تربطهم رابطة واحدة ويجمعهم دين واحد ومبدء لايختلف قد خلت قلوبهم من المفاسد والاغيار وطهرت ضمائرهم الى حد ان كانوا كالبنيان يشد بعضه بعضا قد تجسمت فيهم العقائد الدينية وسيطرت على افكارهم الوقادة روح القرءان وقدسية الاحاديث النبوية فاخذت منهم كل ماخذ وعملت فى نظمهم كلها بغاية ما لها من القوة وما اعطيت من جاذبية وسحر حيث نورت منهم الاحلام وهذبت المشاعر وايقظت فى نفوسهم الغيرة الدينية والحماس العربى ومكارم الاخلاق وعالى الشمم وطافح المجد والشرف اولائك الاباء فاى شىء ياتري ورثه عنهم الابناء اليس كل ما وصفنا من حالهم نحن منه ولا شك على العكس وبالنقيض

فمن اخـلاق منحطة ونفـوس لا تابى الضيم ولا تضجر من الاهانة الى وهن فى العقيدة الدينية وتسيطر ءاراء الملحدين والمارقين على كثير من افكار الناس ومعتقداتهم الى مـا تضيق عنـه العبارات ولا تتسع له الصفحات

وبعد فحاجتنا الى التجديد قوية وقوية جداً وكل شىء يحيط بنا نحن مفتقرون فيه ولا مرية الى القلب والابدال والاصـلاح والتغيير و لاغرابة فى ذلك اذ كل شيء فى الانسان نحن مومنون بتطوره وخصوصاً نفسيته الأخلاقية فقد ذكر أرسطوطاليس فى كتابه الأخلاق والمقولات أن الانسان يكون شريراً فينتقل تدريجيا بالتدريب وتكرار المواعظ والأخذ بالسياسة إلى الخير قال والانسان مطبوع على الفضيلة وشرف النفس وكمال الأخلاق وليس كل ما فيه من عوج إلا أثر للتربيه ، نشأ عنها وتكون من فسادها

وعلى نظرية أرسطوطاليس هذه جل فلاسفة العصر ومفكريه بل قد بنى عليها الايديالستيون مذهبهم وجعلوا علم الأخلاق مما هو وراء الطبيعة لا يعرف إلا بوحى إلاهي والهام من السماء وظل مذهبهم هذا سائداً في الأوساط الأوربية الى ما بعد ظهور العلامة المستشرق ستـوارت ميـل الأنجليزى ذلك الذى أحيى مذهـب الأهوتيين والحواسيين السانسواليست القائلين بان الأخلاق لاتتغير ولا يطرؤ عليها التجديد والاصـلاح بل هى كما هى عالية أو سافلة ويوجد الآن

مذهب ثالث يعرف بعلم الاخلاق المستقل عليه جل العظماء والمفكرين لهاذا العصر . وخلاصته ان الاخلاق هى احترام كرامة الانسان اى لامركز لها ترتكز عليه لافكرة خوف عقاب كما يقول الاهوتيون ومعهم الفيلسوف « كانت » واشياعه ولا علي الندم من فعل القبيح كما يقول ستوارت واتباعه

ونظرنا هو ما اسلفناه من ان الانسان مطبوع علي الخير ولاكن قد يزيغ قلبه فياتى الشر ويرتكب القبيح ثم لا يلبث بعد معالجة نفسه المريضة وتقويم نظره المعوج ان يرجع الى ما جبل عليه من الخير وطبع فى نفسه من حبٍ للفضيلة والجمال وسمو الأخلاق وشريف الخصال

وليس معنى ذلك ومغزاه الا التجديد . فالى التجديد وقدس الله ارواح المجددين

التجديد فى نظر علماء الدين (1)

وجود التجديد فى راس كل مائة سنة

المائة مبدءها من البعثة او

مجدد المائة الواحده قد يتعدد

لا يشترط فى المجدد ان يكون شريفاً

لا يشترط في المجدد ان يكون على مذهب الشافعى

لا يشترط فيه ان يكون مجتهداً

حيث ايقنا سابقاً بحاجتنا الى التجديد وعلمنا شدة توقفنا عليه وكان التجديد الذى ننشده لامتنا والمعنى الذى نقصده بهاذه الكلمة هو التجديد الديني والمعني الذى وضعه له الشرع

كنا مضطرين لا ستقصاء البحث فى النقط التى اسلفنا ذكرها لناخذ التجديد بمدلوله الشرعى اولا ولنكون على بينة من اتجاهات افكار علماء الدين ورجال فلاسفة التشريع الإسلامي فى هذا الموضوع ثانياً

اخرج ابو داود فى الملاحم والحاكم والبيهقى والطبرانى فى الاوسط عن ابي هريرة رضى الله عنه رفعه ان الله يبعث لهاذه الامة علي رأس كل مائة سنة من يجدد لها أمر دينها واتفق الحفاظ على

(1) بحث استفدته عن سيدى الوالد قدس الله روحه

صحته وقد حكى اتفاقهم هذا البيهقى فى المدخل وابو الفضل العراقى والحافظ ابن حجر

ثم انهم اختلفوا فى مبدء المائة هل هو البعثة او الهجرة او الوفاة وبعد ماعرض خلا فهم هذا النحاس فى كتابه الناسخ والمنسوخ رجح انه من البعثة لاكن ما احتج به من قول سفيان ابن عيينة : بلغنى انه يخرج فى كل مائة سنة بعد موت رسول الله رجل من العلماء يقوى الله عز وجل به الدين لا ينم . وقد حكاه منتقداً له التاج السبكى فى اول طبقاته وذكره ايضاً مزيفاً له ابو الفيض محمد بن عبد الكبير الكتانى في شرحه للمرشد وكل منهما رجح ما اسلفناه عن النحاس من ان مبدء المائة من البعثة

ثم ومقتضى الحديث حيث عبر بمن تعدد المجدد وان كان ابن حجر فى كتابه مناقب الشافعى رضي الله عنه قال ان الحديث ورد في بعض روايته بلفظ ان الله يبعث لهاذه الامة على راس كل مائة سنة رجل يجدد لها امر دينها وكلمة رجل صريحة فى نفى التعدد والروايات يفسر بعضها بعضاً ولاكن قدبحث فى هذه الرواية الحافظ ابن كثير فى كتابه البداية والنهايه وتم كلامه اخيراً على القول بتعدد المجددين لكل مائة وتبعه على ذلك السيوطى فى كتابه « المجددون »ومن الغريب ان ابن حجر فى فتح الباري بعد ان ذكر كلام النووى فى حديث لا تزال طائفة من امتى ظاهرين

على الحق من انه يجوز ان تكون طائفة متعددة من انواع المومنين قال ما نصه وهو متجه فان اجتماع الصفات المحتاج الى تجديدها لا تنحصر في نوع من الخير ولا يلزم ان خصال الخير كلها في شخص واحد الى ان قال اخيراً فعلى كل من اتصف بشيء من ذلك على راس المائة هو المراد سواء تعدد ام لا ه ولعله رحمه الله سهى عما في كتابه الاول او تغير نظره في ذلك وعليه فهو متفق مع ما ذكرناه عن ابن كثير والسيوطي ومع ما قاله الحافظ العراقي ايضاً فان هذا لما نقل عن بعضهم ان ابا اسحاق الشيرازي وابا طاهر السلفي من مجددي القرن الرابع قال ولا مانع من الجمع وتبعه على ذلك الذهبي فانه جعل من مجددي القرن الثالث ابن سريج والاشعري والنساءي وذكر في كتابه مجامع الاصول ان من مجددي القرن الاول عمر ابن عبد العزيز ومحمد الباقر والقاسم ابن محمد وسالم ابن عبدالله والحسن وابن سيرين وابن كثير المقرىء والزهري ومن مجددي الثاني المامون والشافعي واللؤلؤي من الحنفية واشهب من المالكية وعلي ابن موسى الرضى من الامامية والخضر من القراء وابن معين من المحدثين والكرخي من الزهاد وذكر من مجددي الثالثة الخليفة المقتدر والفقيه ابن سريج والطحاوي من الحنفية والاشعري من المتكلمين والنساءي من المحدثين الخ وقد ساق

كلامه هذا برمته الشيخ مرتضى فى شرح الاحياء ونقله ايضاً ابن حجر فى الفتح والسبكى فى الطبقات وزاد قائلا لقد اخطأ من جعل الاشعرى من مجددى القرن الثالث وحده وان كان ولابد من عدم التعدد فليكن ابن سريج لان الاشعرى تاخر بموته عن راس القرن الى ما بعد العشرين . وله رحمه الله رايه هذا وعليه دركه اذ المتبادر من الحديث انه لا يشترط موت المجدد علي راس المائة وانما يشترط ذلك في ظهوره . والحق ان التاج رحمه الله تابع فى ذلك فقد ذكر قبله هذا الاخذ من الحديث المناوى في شرح الجامع للصغير عن كثير من جهابذة الرأي منهم الطيبي فى حواشى الكشاف والكرمانى فى شرحه للبخارى وزيف اخذهم هذا بما ذكرناه

ثم اختلفوا هل يشترط فى المجدد الشرف واذا كان هل الشرف الطينى او المعنوى فقط وممن ذكر خلافهم هذا السبكى فى الطبقات واختار منه القول الثانى وهو اشتراط الشرف المعنوي فحسب مستدلا عليه بقول الامام أحمد — سقى الله عهده — نظرت فى سنة مائة فاذا هو رجل من ءال بيت رسول الله صلي الله عليه وسلم يريد عمر ابن عبد العزيز ونظرت فى رأس الثانية فاذا هو كذلك من ءال بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يريد الامام الشافعي قال أحمد ولا استطيع ان اتكلم فى الثالثة وما بعدها وما زاد السبكي رحمه الله على ان نسب هذا للامام أحمد بما لا يقبل الطعن

واستنتج منه ما يراه من عدم اشتراط النسبة الطينية مؤيداً ذلك بان جميع من الدعى فيهم التجديد من بعد المائة الثانية إنما كانوا مقلدين للشافعي ولم يكن واحد منهم خارجا عن مذهبه إلا ابن سريج والاشعري وقليل منهم من كان محصلا على النسبة الطينية فهو يرى أنه لا يشترط الشرف الطيني ويشترط المعنوي ومن جملة مقومات هذا فى نظره كون من ادعى التجديد هو على مذهب الشافعى

وقد نقل كلامه هذا صاحب خلاصة الاثر فى ترجمة الشيخ شمس الدين الرملى وذيله بكونه موافقاً لقوله عليه السلام سلمان منا أهل البيت ولقوله عليه السلام «ال محمد كل تقي و الحديث الأول أخرجه الطبرانى فى الكبير والحاكم فى المستدرك والثانى أخرجه الطبرانى باسانيد كلها ضعيفة

ولما عرض صاحب كتاب مباحثة سلطان علماء الظاهر فيما نسب لسلطان العارفين الاكبر لما قاله السبكي ووافق عليه كثير ممن بعده منهم السيوطي فى حسن المحاضرة وفى التنبيه له أيضا قال انه الصواب وينبغى أن يكون معتمداً ونهج منهجهم فى ذلك العلامة القصار فى ارجوزته حيث قال

لا تشترط فى القطب والمجدد * نسبا الا العلم بالمعتمد

بقى أن ما قدمناه عن السبكى من أن مجدد ما بعد المائة الثانية لا يكون الا على مذهب الشافعي يناقضه ما ذكره هو بعد من أن من مجددى

السابعة إبن دقيق العيد إذ ابن دقيق العيد لم يكن شافعيا

ثم لا يشترط فى المجدد أن يكون مجتهداً حسبما نص علي ذلك الحافظ السيوطى فى كتابه التنبيه وهو الذى يرشد اليه ايضا ما تقدم عن السبكى مع كونه توبع عليه

ومن جميع ما سبق فى هذا الفصل يمكننا ان نستنتج النتائج السالفة الذكر والتوفيق بيد الله

الجهد وقيمته

ان جملة اشياء يجب ان يستعملها الانسان بقدر الحاجة ويتناول منها ما يتيقنه او يظنه كافيا والا كانت مضرة به والما بالغاً فى حقه وكذلك الجهد في الحياة يجب ان يكون فى غير افراط والكد فيها لا بد من ان يكون بتوازن واعتدال فقد يميت الجهد احيانا الجسم ويضنيه ويبلغه المهالك ويوهيه كالسم قليله ينبه وكثيره يقتل والجهد بعد هذا اساس طول العمر وسبب كثرة سنى الحياة فكم من شيوخ اكل عليهم الدهر وشرب واثقلت كواهلهم الايام بفروضها فلم يستطيعوا النهوض بتلك الأعباء التي حملتهم اياها والأثقال التى القتها على عواتقهم فخطروا بين الناس وقد انحنت ظهورهم ونظرت الى الارض فقط عيونهم فى انتصابهم عوج وفى انبساطهم التواء وعرج انت اذا بحثت عنهم تجدهم وقد كان هناك شاغل يشغلهم فى الحياة وعائق يعوقهم عن الوصول للتمتع برفاهيتها والتنعم بنعيمها فهم دائماً يجهدون قواهم فى صرف العائق وازاحة المانع حتى اذا نجحوا وتمت لهم البغية خلدوا الى اللذات وشغلوا بالشهوات فسكن ثائرهم الوجداني وذهب عنهم مهماز الجهد ومنبه العمل والنشاط فمنهم من قضى

نحبه ومنهم ينتظر وهذه طبيعة من طبائع الحياة لا تتمثل فى الشيخ فقط بل وحتى فى الشاب الا انها فى الشيخ اكثر جلاء واقوى وضوحا فكم من شاب نجده يتمنى الاماني ويطلب الزمان بما يحب ويريد كنجاح فى امتحان او نيل وظيفة عالية او غير ذلك فهو يعيش بدافع الجهد ويعمل بنشاط قوى ومثابرة دائمة ذلك ليحصل على الامنية المقصودة والغرض المنشود فاعصابه فى هذا الحين متنبهة وجسمه مكسو بكساء الحياة قد جرى فى لونه ماء وعلى ديباجته حسن وبهاء حتى اذا ربح القضية وحصل على مراده ومتمناه نام ذهنه وارتاح باله فتراخت الاعصاب وكسف الضوء وغاض الماء وتصوحت الزهرة وتبدل الشطر والرواء وهنا يستسلم الجسم لغازى الموت ويركع امام مذبح هادم اللذات فيكون القضاء الأخير والفناء الابدي

سقم من سلامة وعزاء * من هناء وفرقة من وداد
يجتني شهدها علي إبر النحـ * ـل ويمشي لوردها في القتاد
وعلى نائم وكسلان فيهـا * اجـل لا ينام بالمرصـاد

والالعاب الرياضية نفسها ليست لها قيمتها العالية ومكانتها الرفيعة الا من حيث انها جهد دائم وتعب متواصل تنبه الجسم لغايته العليا وتنفض عنه كسله وخموله وضجره وقنوطه فتجعله ذا نشاط فى العمل وخفة فى الحركة تلك المميزات التي يمكنه ان يتغلب بها علي الامراض

الكثيرة التى تهدده والاسقام العديدة التى تتربص به الدوائر وتترقب منه الكسل والخمول لتفتك به وتنهك قوته الضعيفة « مهما بلغ امرها » فنحن نستنقع بالماء البارد فى الصباح — اذا أمكن — ونجهد النفس فى تحمل المه الشديد ووطأته العنيفة ذلك ليتوهج الجسم بالحرارة الغريزية وتتهيج الاعصاب لمقاومة الحر والبرد فى حين اننا ايضاً نخدم بذلك العقل ونكون في النفس حكم الاعتماد عليها وعادة الايمان القوي بمبادئها مع سرعة الانتباه وقوة العزيمة — ومثل الاستنقاع القفز والسباحة والمصارعة والعدو وغير ذلك من الالعاب الرياضة المعروفة « بالجيمنستيك » والتى هى العامل الثالث من عوامل التربية الجسمية فى معاهد التعليم عند الامم الراقية واولها الالعاب الحرة وهي ما يقوم به الطفل من الالعاب بمحض اختياره الثانى التمرينات البدنية وهذه من اهم عوامل التربية فى الجسم الا انها تتوقف على قوة الإرادة فى التمرن مع مضاء العزيمة فيه ونفاذ الراي الثالث الالعاب الرياضية وهى التى يقوم بها جمع ضد آخر او فرد ضد فرد والغاية منها اولا التحصيل على الجائزة المعينة او الفرح القريب وثانياً قوة الجسم ونشاطه مع الخفة وسرعة الحركة الى غير ذلك الرابع الأعمال اليدوية كالخط والرسم وعمل النماذج المختلفة وهذه تكون فى التلميذ الرقة فى العمل مع الصبر والأمانة وتمرن الاعصاب المصدرة والموردة ثم ومما له

علاقة بموضعنا قضايا كثيرة لا زالت الى الآن مشكلتها تشغل فكر علماء النفس وتجهد قرائحهم الملتهبة وذكاءهم المتوقد ذلك لاستخراج عللها الخفية واسرارها التى غابت عن عقولهم الراجحة وافكارهم المتنورة تلك القضايا التى هى من دواعى العجب والاستغراب في ظواهرها والتى هى خافية التعليل وغامضة الحقيقة والكنه عن المفكر فيها والعمل سببها يرجع الى ما أشرنا اليه من ان الجهد ينبه أعضاء الجسم الى وظائفها ويجعل الاعصاب متيقظة في اداء ما يجب لبقية الجسم عليها وعلى كل فالجهد — عموماً — مقياس صادق لتقدم الامم ونهوضها ودليل قوي على سيرها فى طريق الكمال ومهيع السمو والرفعة بل هو الشرط الاساسى لحياتها والعامل الجبار في نضوجها العلمى والادبى والاجتماعى فبه يمكنها ان تنزع نزعة ابتكار واختراع وبه تكون ناظرة لمستقبلها نظرة فخر وإعجاب وسعيدة فى حاضرها الزاهر مع سمو واكبار اما الماضى فلسنا ممن يحتفل به او يتشدق يوماً بمئاثره ومفاخره

وهل ان كان حاضرنا شقياً ✲ نسود بكون ماضينا سعيدا

اسباب الرحلة عند العرب

كان العرب فى عصرهم الزاهر ، الحافل بالعظمة والمفاخر ، يوم كانت الدولة دولتهم ، ولهم السيطرة المطلقة على العالم القديم ، بره وبحره ، حاضره وباديه اعلم الناس بعلم الجغرافيا وفن تقويم الارض وتخطيط الاقاليم ، الامر الذى يدلنا عليه كثرة ما كتبوا فى هذا الموضوع ودونوا حتي قال الاستاذ : اسماعيل على فى كتابه « النخبة الازهرية » في تخطيط الكرة الارضية ان جل ما كتب عن عواصم الارض فى جغرافيتها السياسية والتاريخية والرياضية كل ذلك يرجع الفضل فيه للعرب اولا — وقبل كل شيء — فهم الذين كتبوا فيه سابقين ووضعوا اصوله للباحثين والمنقبين ،،

ولقد انتهى الينا النزر من كتبهم هاذه وما وقفنا منها الا على القليل ، ولا كن في هذا القليل ما يجعلنا نفخر بابائنا الاولين ، ونعجب لثراتهم الخالد ومجدهم المكين ، فمن ذلك كتاب « مسالك الممالك » للاصطخرى ، وكتاب « المسالك والممالك » لابن خرداذبة وكتاب « الخراج » لقدامة ابن جعفر فى

مسالك البريد ، وكتاب « الفوائد في اصول علم الارض والقواعد » لابن ابى الركايب ، الى غير ذلك مما تحتفظ عليه خزائن العالم الكبرى ويوجد فى ذخائرها القيمة وكان علم العرب هذا متسبباً عن كثرة رحلتهم ، وطول سيرهم فى الارض ، وملازمتهم للاسفار ، الامر الذى كانوا مدفوعين اليه بعوامل كثيرة ، اهمها ثلاثة : التجارة وطلب العلم والحج . اما التجارة فان الاسلام لم يمض على ظهوره نحو قرن حتى عم اكثر بقاع الارض ، فكانت حدوده تتاخم الصين من الشرق والمحيط الاطلسي من الغرب ، وبداعى الرفاهية والنعيم ، وبعامل التوسع ، فى البلاد التى خضعت للدعوة الاسلامية ، واكتسحها النفوذ العربى ، فقد استكثر الفاتحون من التسرى وجلب العبيد لخدمتهم ، حتى انتشرت النخاسة لحد مدهش ، واخذ تجار العرب يجوبون البلاد ويقطعون جلباب الدجى بجلم اليد وسيف العنق فدخلوا الى قلب افريقيا وجنوبيها ، وتوسعوا فى الصحراء الغربية والجنوبية كل ذلك لجلب العبيد والتجارة فيه بل كانوا فى عهد بنى العباس يفخرون بهاذه الحرفة ويعدونها من المزايا العـــالية ، ذكر صاحب « عيون الاخبار » ان ابا دلامة مر بنخاس يبيع الرقيق فراى عنده منهن كل شيء حسن ، فانصرف مهموماً الا ان دخل على المهدى ، فانشده قصيدة يفضل فيها النخاسة علي الشعر ، ويفخر بصحبة هذا النخاس الذى مر عليه ، مطلعها :

ان كنت تبغى العيش حلواً صافياً * فالشعر اعذبه وكن نخاسا

وهذا ما جعل قصور الخلفاء — فى ذلك العهد — وبيوت الامراء ، ماوى الرقيق على اختلاف اجناسه ونعدد عاداته وطباعه ولغاته

حكى ابن جرير فى تاريخه : ان احمد ابن صدقه دخل على المامون يوم السعانين : « عيد للنصارى » وبين يديه عشرون وصيفة مزنرات قد تزين بالديباج الرومي ، وعلقن فى اعناقهن صلبان الذهب وفى ايديهن الخوص والزيتون ، فقال المامون : ويلك يا احمد قد قلت فى هاؤلاء أبياتاً فغننى بها ثم انشدنى :

ظباء كالدنانير * ملاح فى المقاصير
جلاهن السعانين * علينا فى الزنانير
وقد زرفن أصداغاً * كاذناب الزرازير
واقبلن باوساط * كاوساط الزنابير

فغناه بها فلم يزل يشرب وترقص الوصائف بين يديه انواع الرقص ، وحدثنا الطبرى ان المتوكل كان له اربعة آلاف سرية ، قال المسعودى : وهي من مختلف الاجناس طبعاً ويكفى دليلا على كثرة الرقيق لحد مدهش فى الحضارة الاسلامية تلك الثورة الكبرى التى قامت على اكتاف العبيد فى العراق ، والتى صمدوا بها للخليفة العباسي عدة سنين حتى جرح جرحا بليغا ، وكادوا يلقون الفشل في صفوفه ، فيقوضون بذلك صرح الخلافة وعرش العباسيين

فالرقيق اذاً كثير ، والنخاسة شائعة في كل الاوساط ، وشيوعها — هذا — حامل لأصحابها علي التنافس وجلب الاحسن ، ولا يكون ذلك الا بالبحث عنه فى شاسع الاقطار ، وابعد البلاد عن جزيرة العرب اما بقية انواع التجارة التى كانت تدعوهم الى الرحلة ، وتحملهم على السياحة فذلك ما لا يكاد يعد امام عامل النخاسة الذى فصلناه

اما الحج فان فرضه كان من اكبر الدواعى واعظم البواعث للعرب على مواصلة السير وادمان السرى فهم ما كانوا يعتقدون افادته من الناحية الدينية فحسب ، بل ومن ناحية الاقتصاد والاجتماع ايضا ويرى علماء التشريع الاسلامي ، وفلاسفة الاجتماع ان هذه الناحية هي السر فى اقرار الحج فى الاسلام وجعله فريضة على الناس فالعرب كانوا يتسابقون الى مكة المكرمة قصد اداء الواجب الدينى اولا وتناول اخبار بلادهم واحوال مجتمعهم ثانياً هذه الاخبار التى كانوا يجهلونها باذق معانى الجهل لولا هذا الموسم العامر ، والحفل الحفيل ، وهذا المؤتمر الاكبر الذي ينعقد فى فردوس العبادة فى الارض ، وجنة الدنيا المعنوية ، هذا المؤتمر العامر الذى يقصده عشرات الالوف منذ عهد اسماعيل الى الآن ، قال ابن دريد :

يحملن كل شاحب محقوقف * من طول تدآب الغدو والسرى
ينوي التى فضلها رب السما * لما دحى تربتها علي البني

حتى اذا قابلهـــا استعبر لا * يملك دمع العين من حيث جرى

اما السبب الثالث الذي هو طلب العلم ، فهنا يقف الباحث داهشاً امام ما سجله التاريخ للعرب من رحلات بعيدة في طلب العلم ، والكرع من منهل العلوم ، ومورد المعارف والفنون ، حتى قال العلامة الكبير أحمد تيمور فى كتابه «حضارة العرب في الاندلس» انه لم يعرف التاريخ عالماً أندلوسيا تم نضوجه وتخمرت المعارف فى ذهنه ، وليست له رحلة الى الشرق فى طلب العلم ، قال : وكل من ذهب اليه منهم رجع الى بلاده ما عدا أربعة ابو اسحاق الشاطبي ، وابو بكر الطرطوشى وابن حيان ، وابن مالك

اما غير الاندلوسيين من علماء العرب الذين عرفوا بالرحلة فى طلب العلم ، فشيء كثير لاتأتى عليه هذه العجالة ولاكن لنشير — قصد الإفادة — الى بعضهم موجزين

فمنهم ابو عبد الله محمد بن اسماعيل البخارى ولد اواخر القرن الثانى بحدود الصين ، وبعد تحصيله على مباديء العلوم رحـــل فى طلب الحديث وتحقيق الفاظـــه الى خرسان ، وجبال الدربنر ومدن العراق والحجاز ومصر والشام ومن هناك رجع الى بغداد حيث كان يحضر مجلسه على ما قيل عشرون الفاً ، وبقي يتمتع بالشهرة الذائعة ، رافلا فى حلل المجد والعظمة الى أن توفى بقرية من قرى سمرقند رحمه الله .

ومنهم قطب الدين المسعودى صاحب كتاب مروج الذهب ومعادن الجوهر، فانه ما وضع مؤلفه هذا الحفيل، وتاريخه العجيب حتى جاب أقصى البلاد، وطاف اكثر بقاع الأرض فدخل الهند وقطع سواحل افريقيا الشرقية الى أن وصل الى شبه جزيرة العرب ومنهم المؤرخ العظيم الهروى واضع كتاب « الاشارات الى معرفة الزيارات » فقد حدثنا فى كتابه هذا أنه زار مصر وسوريا واليمن والهند وفارس والجزيرة والحرمين والروم، الى غير ذلك.

ومنهم شهاب الدين أبو عبد الله الحموي الرومي البغدادي مؤلف كتاب « معجم البلدان » فانه طاف لاجل جمع كتابه هذا جل عواصم الارض وبلاد العالم، وكان يتحمل مصاعب كثيرة فى تحقيق الفاظه، والرضوخ الى حكم العقل فى كثير من مسائله الجغرافية والتاريخية والرياضية، الامر الذى بوأه تلك المنزلة القعساء بين علماء العالم وعظمائه رحمه الله رحمة واسعة.

ومنهم إبن بطوطة ذلك الرحالة الكبير والعالم المطلع الخبير، ولد بطنجة « سنة 703 هجرية » وبعد أن بلغ العشرين سنة من عمره، وتعلم مباديء القراءة والكتابة، رحل الى الجزائر فتونس وبرقة ومصر وبعد ما اتم بها دروسه العلمية، وكمل فى نواحى ثقافته، ذهب الى الشام فالعراق فاليمن فسواحل افريقيا الشرقية ومنها جزائر بحر فارس حيث دخل الى الأناضول، ثم القسنطنطينية

ومن هناك زار جنوبى روسيا الى أن بلغ شبه جزيرة القرم ، وفيها شاهد تباشير تلك النهضة العظيمة للدولة التركية ، فرآها وهى بعد طفلة فى نشأتها الاولى ، وبدايتها الحميدة ، ومن تم رجع الى الشرق فدخل خرسان ونجارى ومنها الى الهند حيث عين فى دلهى قاضيا ولاكن لم يكن هـذا المنصب ليرده عـن غايته ، ويصرفه وهو الحديدى الارادة عن وجهته ، فزهد فيه بعد سنة من تقلده اياه ووالى رحلته الى سيلان وجزاير جاوه وسمطرة ومن هناك دخل الى بكين عاصمة الصين الكبرى ، فلبث فيها سنوات ثم رجع الى مسقط رأسه طانجة وهنا قوبل بحفاوة زائدة وخصوصا من ملك ذلك العصر أبو عنان المرينى — رحمه الله — وبعد أشهر من أوبته ، ذهب الى السودان ، فقطع قلب افريقيا واجتمع بامراء الزنوج وملوكهم ، وبعد ما اتم مهنته رجع الى طنجة .

هذه لمحة من ترجمة إبن بطوطة العظيم واكبر رحالة عرفه العالم فى ذلك العصر ، فلقد راى ما لم ير غيره — إذ ذاك — و قطع المحيط الأطلسي والمحيط الهادى فهل كانت حياة أحد حافلة بالعظمة عامرة بالمتع مثل حياة مغربينا الكبير إبن بطوطة

وكم « للمغرب » من مفاخر ، ولرجاله من مزايا جليلة ومآثر ، فعسى الله أن يوفـق قادتنا المعاصرين وعلماء حاضرنا المخلصين ، لسبر غور مجموعات التاريخ المغربى والبحث عن دفائن كنوزه

القيمة وذخائره التي لا زالت جوهرة فى صدفها ودرة مكنونة بين أسجافها فيخرجوا علينا بشموس هداية نيرة وأقمار توفيق وإرشاد ساطعة فى ظل مولانا ملك البلاد ناشر الوية المعرفة والعدل فى كل ناد من أشرقت أنوار العلم بعهده فكان مشرقها وتقدمت الفنون بعصره فكان مشجعها أدام الله عزه المكين وحفظ فى شخصه المفدى شرف الاسلام وقداسة الدين

وبعد فهاذه معظم الاسباب التى كانت تحمل العرب علي الرحلة وتدعوهم اليها قد أوجزنا الكلام عليها فى هذه العجالة فالى فرصة اخرى وسانحة تواتى بحول الله

﴿ العزيمة المحمدية ﴾

لقد جمع تاريخه صلى الله عليه وسلم تاريخ الانسانية الكاملة والأخلاق الفاضلة الشاملة تلك التى جهد الزمن أن يظفر بها وحاول الدهر أن يصل اليها فاتعبه الجهد واضنته المحاولة ولكن سرعان ما تحقق الأمل على يد معجزة الوجود الخالدة وسيد العالمين صلي الله عليه وسلم فكان في سيرته القويمة وهديه الرشيد أوضح موضح وانبل نبيل وابين مبين فمهما أجهدت النفس لتكشف النقاب عن سر ذلك الكمال وأتعبتها لتصل لغاية ما فى ذلك المبلغ السامى من تقدم ورفعة كنت وقد كلفتها ما لا طاقة لاحد به الا ذوي الهمم العالية والعزائم الفتية والا ذوي القلوب الصادقة في إيمانها المشرقة بنور النبوة وجمالها .

والكتابة في هذا الموضوع لا يقصد بها درس حوادث التاريخ وبيان الوقائع والمشاهد فذلك مما تكلفت به كتب السيرة وعمل على جمعه واستقصائه من كتب في الشمائل النبوية وانما القصد منها الدرس والتحليل واستخراج الحكمة والموعظة من ذلك التاريخ الملىء بالكرامة والنبل والشهامة والعزة . ذلك ليتيسر

فهم معنى الاسوة التى أمرنا الله تعلى بها فى قوله لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة . ولتشرب القلوب بمبادئه السامية وتتذوق النفوس روحانيته العـــالية . فما ساد العرب الأولون ولا كانوا كالنجوم اللوامع فى ليالى الزمن المدلهمة . إلا لان قلوبهم أشربت مبادىء رسولهم الأكرم ومربيهم الأعظم ذلك الذي صـاغه الله على أحسن مثـال وأكمله وأودع فى نفسه الشريفة قـوة وعزيمة لو اجتمعت الأحـداث ؛ وأتلفـت الكـراث على ان تضعـضعها أو تزلزل منها ما كان لها من الاثر الا كما يكون للريح الهوجاء حين تعرض للجبل الشـامخ والطود العظيم لتزيله عن مكـانه . سبحـانك اللهم فقـد امتنحت عزيمة نبيك صلى الله عليه وسلم وبلوت إرادته بما يزلزل الجبال الرواسى والشم العوالى فما فترت العزيمة ولا ضعفت الارادة حتى تقشعت السحب وذهب الغيم وبدا نور الحقيقة ساطعا وضـاء وظفر النبي صلى الله عليه وسلم بما أراد وما أعددته له وارسلته من أجله . ناديته ياأيهـا المدثر قم فانذر وربك فكبر وثيابك فطهر والرجز فاهجر ولا تمنن تستكثر ولربك فاصبر » فلم يتردد لحظة فى القيام بالمهمة التي القيت على عاتقه ولوكانت نفسه لها الفداء فدعا موضع ثقته من الناس ومن كان يركن اليه من البشر فى حكمة بالغة وسر خفى جرياً على السبيل المستقيم وسيراً مـــع الطريق القويم حتى أوحيت اليه

أصدع بما تومر واندر عشيرتك الاقربين واخفض جناحك لمن اتبعك من المومنين فقام يدعو عشيرته الى اجتماع عام ومؤتمر خالد وفيهم من اكل نفوسهم البغض وملأ قلوبهم الغيظ ومن لا يتورع من مجابهته بالتكذيب وتأليب القوم عليه فيهم من هو أشد الناس عتواً وطغياناً وتجبراً وعناداً ولاكن أين ذلك من عزيمته الصادقة وثباته القويم فهو صلى الله عليه وسلم يعرف كل هذه الاعتبارات ويقدرها حق قدرها وبالرغم عن ذلك جمعهم فى منزل عمه أبى طالب ثم وقف فيهم خطيبا يقول « ما أعلم إنساناً فى العرب جاء قومه بافضل مما جئتكم به قد جئتكم بخير الدنيا والاخرة وقد أمرنى ربى أن أدعوكم اليه فايكم يؤازرنى على هذا الامر وأن يكون أخى ووصي وخليفتى فيكم فاعرضوا عنه وقام أبو لهب يدعوا القوم لينفضوا عن المجلس ولم يتكلم أحد غير علي وما يزال صبيا فقال أنا يارسول الله عونك أنا حرب على من حاربت وسخر القوم واستهزؤا وتمسكوا بطغيانهم بتلك الكلمة الواهية التى نطق بها أبو لهب واجابه الوحى عنها بقوله تبت يدا أبى لهب وتب ما أغنى عنه ماله وما كسب سيصلى ناراً ذات لهب . اغتاظ أبو لهب واشتد غيظه وغضب واشتد غضبه وسعى ما وسعه الجهد فى تاليب القوم علي رسول الله صلى الله عليه وسلم واثارة عواطفهم

وكامن أحقادهم فصبر عليه السلام لذلك صبر الكريم وكان أسمى من كل ذلك واكبر وأعظم من أن يفت ذلك فى عضده أو يصرفه وهو الحديدى الارادة على وجهته . وكان من اثر ما فعله أبو لهب أن اجمعت قريش كلمتها وذهبت إلى أبي طالب عم رسول الله صلى الله عليه وسلم والمدافع عليه لتخييره بين أن يكف ولده عما هو في سبيله أويسلمه اليهم ليقتلوه ويعطون أبا طالب بدله انهد فتى فى قريش وأجله وهاهم ينذرونه ثورة الغضب على بني هاشم وها هو أبو طالب يلاينهم فى القول ويردهم رداً جميلا ويضطرب قلبه خوفاً من العاقبة فيدعوا إليه إبن أخيه ليقص عليه نبأ القوم فلا يحمل بني هاشم نتائج قد تنال منهم فقص عليه الأمر ثم قال فى شىء من القوة فابق على وعلى نسبك ولا تحملنى من الأمر ما لا أطيق . فى هذه اللحظة الرهيبة أجاب الرسول فى عزم شامخ وقوة بالغة « والله لو وضعوا الشمس فى يميني والقمر فى يساري على أن أترك هذا الأمر حتى يظهره الله أو أهلك فيه ما تركته » فسيطرت قوة روحه النبوية وعزيمته المحمدية على نفسية عمه وخاطبه بقوله « اذهب يابن أخى فوالله لا أسلمك لشىء أبداً . تبارك الله ما أقوى قلب نبيك وأشد عزمه وأنبل غايته وأشرف قصده فمساك اللهم أن تجعلنا على اثره وتشد أزر ضعفنا بقوة من عندك إنك على كل شىء قدير ؟

صلة الانسان بالجمال

كلنا تجذبه المناظر الحسنة وتستهويه المراتع الملهية المطربة وكلنا تستفز نفسه رؤية الجمال ومشاهدته وسواء كان فى الحيوان الناطق أم فى العجماوات بل وحتى فى الجماد

فمن منا لا تحرك عواطفه ولا يقف مشدوهاً أمام قوس قزح مثلا ومن منا لا ينافس فى إحراز التحف الصناعية الفنية والطرف الجميلة التى هي من ءايات الفن البديع والحسن الرئع الخلاب حتى أخذنا ننشيء لها المتاحف ونشيد لها دور الاثار الشاهقة فى كل حدب وصوب

وجمال هاذه الأشياء الصناعية هو وإن لم يكن جمالا طبيعياً خالياً من عمل اليد الانسانية فيه واثرها المقارن فى تكوينه ونشوئه فهو جمال فن واثر إبداع فائق ومهارة عليا نحن وإن كنا لا نتذوقه كالجمال فى الانسان ولا تصبوا اليه نفوسنا فى شدة وهلع ولاكنه وعلى كل مما يؤثر فى النفس تاثيراً حسناً ومن الاشياء التى تبعث فيها بواعث النشـــاط ومثيرات الفرح والسرور

ولذلك كان الفن من جملة المقاييس التى تقاس بها حضارات

الأمم ومدنياتهم الراقية فى مختلف الأجيال وعلى مر القرون أسمى الشعوب تمدناً وحضارة * من كان منهم فى الفنون عريقا وأحطهم من إن سمعت غناءهم * فمن الضفادع قد سمعت نقيقا فالفن مقياس الحضارة عند من * حازوا الرقى وناطحوا العيبوقا فلما ذا ياترى نتأثر بالجمال هذا التاثير البليغ ولما ذا تنفعل له قلوبنا فيكسبها فرحا قويا ونشاطاً فائقاً وما هى الصلة بيننا وبينه وبين بعض الحيوان كالابل فى طربها لتلحين الحدات وغنائهم الشهي

ذلك ما اختلفت فيه أنضار علماء النفس وتضاربت فيه أقوالهم منذ عهد بعيد واليك بعضها مع رأينا الخاص فى كل منها وتعليقنا عليه بسانح الفكر وعاجل النظر

جعل الكثير هذه الحاسة التى تميز جميل الأشياء من قبيحها هى نتيجة التربية الصحيحة والعلوم التى تنمى فى الانسان الذوق السليم وتجعله مسروراً بجمال الأشياء مهما اختلف مظهر الجمال فيها وتعدد وهذه العلوم هى العلوم الوجدانية مثل النقش والرسم والبناء فيما يرجع لليد والموسيقى فيما يرجع للسمع وءاداب اللغة الذى يرجع تارة التعبير عن جمال الأشياء فيه الى البصر وذلك كما إذا قرء الانسان نثراً أو نظما وتارة يرجع الى السمع وذلك كسماع الرواية التمثيلية

وهذه النظرية ساقطة بالحس والمشاهدة فجميع الناس يدرك أصل الجمال ويتذوقه لغاية ما وإن كان هذا التذوق يتفاوت بحسب سمو التربية وارتقاء ملكات المعرفة والعلم فتغريد الطيور مثلا كل أمة تستملحه وتشاهد فيه معنى الجمال وأثر الحسن والابداع مع أن الامم تختلف موسيقاها وتتفاوت فيها أنغام التلحين ودرجات التوقيع

فلو كان أصل تذوق الجمـــال ناشئاً عن التربية الصحيحة والعلوم التى تنمي فى الانسان ملكات الذوق السليم لما كانت كل أمة تشعر بجمال تغريد الطير اذ هناك أمم جاهلة وأمم تضاهى الحيوان الاعجم فى حياتها الوحشية وزيها الغريب

فلو كان هذا الشعور حقيقة يرجع لما ذكر كانت هذه الامم أبعد الناس وانئاهم عن أن يصلوا اليه ويتذوقوه . هذا أولا وثانياً فان كل أمة تدرك المثل الكامـل لجمال المراة مع رفاهية الحسن فيها ونعومة الأعطـاف حتى الزنوج تعجبهم المراة الجميلة فترى الزنجي يقف مشدوها أمامها وقـد كاد يفقد حسه وإدراكه فلو كان شعوره بجمالها يرجع لعلو الثقافة فيه وصحة التربية لم يكن عنده أدنى شعور وأقل تذوق

النظرية الثانية تجعل ذلك راجعـا لتناسب الجمال وانتظام هيأته — ذلك التناسب وهذا الانتظام هو الذى يجعلنا نقدر الجمال

ونحس أثره فى نفوسنا الحية

وهذا كما حققه الكاتب الإجتماعى سلامة موسى فى مختاراته وان كان يوجد فى بعض الأشياء الجميلة فتكون متسقة الحسن ومتناسبة الاجزاء ولا كنه ليس مطرداً في كل جميل فانت تشعر بجمال الجبل على جانب الوادي فى حين أنك لا تحتاج لاقامة جبل آخر فى مقابلته ليتم التناسب وتتسق الاجزاء وتستقيم الاركان

على أن هذا التعليل من أصله يشبه أن يكون تعريفاً للجمال لا وجها لعلاقته بالانسان وكفية ارتباطه ببني البشر

والنظرية المعقولة التى يمكن أن نطمئن اليها ويرضاها كل عالم منصف هي ان انفعالنا بالجمال وتاثرنا به يرجع لارتباط الانسان بالطبيعة واتصاله المتين بتطورها وتدرج ما فيها على ما يقولون من نبات الى ماء ومن ماء الى حيوان ومن حيوان أعجم الى حيوان ناطق الى ما فى الانسان من جمال فتان وحسن رائع خلاب

وهذا هو الذي جعل إدراك الانسان للجمال لدنيا فمن الذى يحتاج الى شيء في إدراك جمال أريج الزهرة وحسن لونها الرائق الخلاب . ومن الذى يتوقف على تعليم فى إدراك جمال خد حكت ديباجته رونق الخمر ويكاد سنى ضوئه يذهل النفوس

ويذهب بالأبصار ويفتن الصالحين عن سبحهم فى غيبوبة الاذكار

فما بقي الا أن علة الانفعال بالجمال والتاثر به هي طبيعة فى الانسان لا يحتاج فى اكتسابها لعلم ولا لمعرفة ولا لتقليد اى أحد كان

وهناك دليل ءاخر على صحة هذه النظرية وهو أننا نرى الشعور بالجمال يزيد وينقص بحسب تقدم الزمان وتطور العالم فى مهيع الرقى وسبيل النضوج والكمال إذ نحن الان نستحسن هذا النقص الذى وجد في قامة الانسان وبلغ به الى التطور الذى هو عليه والذى جعله فى أزين وصف وأتقن رصف فى جماله ما تقصع به سرائر الاكباد وتتقطع له أفئدة الشاعرين ووشائج القلوب المرهفة فيه مايونق أبصار الناظرين ويفتح أفئدة المصابين والمتألمين

وهذا بخلاف ما كان عليه يوم وجد وطوله ستون ذراعاً يوم كان يخصف عليه من ورق الاشجار ليوارى عورته ويستر سوأته يوم كان وهو مكتس بالشعر حتى صار عجبه ذنباً الامر الذى يدل عليه بعض ما يوجد فى الانسان من خلق غريبة يستدل بها داروين فى كتابه اصل الانواع الذى نشر سنة 859 على أن الانسان لم يكن على شكله هذا بل تطورت

خلقته وتشكلت مع تقدم الدهر وتقلب الزمان

ولقد تجازف داروين فى نظريته هذه حتى جعل الانسان متسلسلا عن القردة وهذا هو الذي لاجله قامت قيامة رجال الدين وضجت ربوعهم على داروين فناقشوه ادق مناقشة واحدها حتى اضطر داروين اذ ذاك للعدول عن فكرته التي تباين من وجه ما جاءت به الكتب السماوية « لقد خلقنا الانسان فى أحسن تقويم » والتي جاءت فى وقت غير مناسب أي منذ 84 سنة وقبل وجود المستكشفات الحديثة والاثار العتيقة فى القدم وطول العهد على أن داروين لم يقصد هذا وانما قصد ما يسمى عندهم بالحلقة المفقودة وسنخصص لنظرية داروين هذه والبحث عنها بمشيئة الله مقالا فيما بعد

وايضاً فاننا اذا استقرينا المناظر الطبيعية وكل ما يتصل بهاذه المناظر من موجودات وكان هذا الاستقراء على ضوء ما حققه اصحاب نظرية النشوء والتطور من ان العالم كان جماداً ثم وجد فيه النبات ثم الحيوان وهذا تدرج من الماء الى اليابسة وتوالى منه هذا التدرج حتي ظهر الانسان من جهة والحيوان من جهة اخرى نجد هذه النظرية على جانب من الوضوح والجلاء فانت حينما يكفهر وجهك لمنظر جبل اجرد وتكربك صورة صحراء قاحلة لا نبات فيها ولا ماء لا تلبث ان يخامرك السرور

وتمتلكك اللذة ويهزك الطـــرب متى رنا بصرك لارض قد أخضرت رباهـا وبسط فيهـا الدوح اجنحته للشمـس والهـواء والطبيعة الساحرة والجو الفتان فكان المنظر بديعا والمرتع راقصا خـــــلابا

منظر فيه للحيـاة حياة ✲ تترك الواله الحزين طروبا

ثم ان هذا السرور لا يلبث ان يتضاعف ويزيد اذا كان منظر الجمال فى الانسان وخصوصا اذا كان بهي الطلعة جذاب المحاسن والاوصـــــاف

من جمال الى دلال بغنج ✲ فى حياء بعفـة مريمـة

هذا التطور فى الانفعال بالجمال مع تطور الطبيعة هو « كما سبق» الذى يدل علي ان التاثير بالجمال هو اثر من ءاثار الطبيعة وبالغ عملها فى الانسان بقدرة الله

فكرة داروين عن الاصل البشرى

لقد واعدنا بانشاء بحث عن مذهب داروين فى أصل النوع البشري وعن أي شيء تسلسل الانسان ومن أي حيوان هو متحدر وعرضنا بايجاز لما يقوله هذا العالم من أن الانسان أصله القردة حسبما فهمه عنه تلاميذه وقلدهم فيه كل من كتب فى الموضوع ودون وقلنا انه لم يقصد هذا وإنما قصد ما يسمى عندهم الحلقة المفقودة أو الاصل المجهول

والآن وحينما نعرض لفكرة داروين أو غيرها من افكار غريبة لا تتفق مع الدين ونصوص القرءان العظيم لا يسعنا الا تكذيبها بعامل الاعتقاد الدينى فى نفوسنا وقوى السيطرة الروحية فى قلوبنا جازمين بأحقية ما نطق به القرءان ومتيقنين بصدق ما جاء به ذلك الكتاب الذى لا ياتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد . مع اعتقادنا أنه لا بد من عودة هذه الأفكار كلها لما قاله الكتاب المقدس وأفصح عنه التنزيل كما وقع في كثير غيرها من النظريات العلمية

نذكر منها كمثال قوله عز وجل « وكل فى فلك يسبحون » فهو يثبت حركة جميع الاجرام مع أن الفلكيين فى عصر الوحى

كانوا يقولون بالثوابت والسيارات فاضطروا بعامل هذا القول الى تاويل الاية على أبعد الوجوه فيها واضيق احتمال تقبله

والآن قد قرر علم الهيئة الجديد ما اقتضته الاية من حركة جميع الأفلاك وصدق الله وكذب تاويل المبطلين

أخطأ الباحثون فى الانجم الزه * ر فقالوا لبعضهن قرار
لا تخل فى السماء ثابت نجم * كل نجم فى فلكه سيار
إنما الثابتات فى كريات ال * جو هاذي النقوش والاحجار
لا ولاكن لهن سير خفي * عرفته الرموز والاسرار

ولا كن القرءان الذى يجب أن نعتقد عنه هذا هو نفسه أعطانا حرية فى بحث جميع المذاهب العلمية والافكار الجديدة مهما كانت صبغتها وكيفما تشكل اللون فيها وظهرت الحقيقة عنها

وهذا هو الذى جعل العلماء منذ صدر الاسلام لا يتحرجون فى ترجمة كتب ديانات اخرى وامم كثيرة طالما جابهت المسلمين إذ ذاك بالعداوة وبارزتهم المكيدة والبغضاء ولقد عد إبن النديم فى كتابه الفهرسة خمسة عشر مترجماً للغة الفارسية فقط فى الدولة العباسية « راجع صفحة 244 من الكتاب المذكور »

وذكر المسعودى فى كتابه مروج الذهب مجلد 1 صحيفة 109 لابن المقفع وحده إثنى عشر كتاباً ترجمها عن الفارسية

واذاً فلا حرج إن نحن طالعنا اليوم قراء الدربية بافكار

داروين وتكلمنا عنها بما هو نتيجة دراسات قيمة لجل ما كتب في هذا المذهب الذى وضعت عنه الاف الكتب وتصادمت فيه اراء مهرة البـــاحثين واساطين العلم والمعرفة

ثم ولا علينا أيضاً فى سرد أدلة قوية دامغة هى عصارة فكر أجهده العمل وأتعبه البحث المتواصل والدرس الدائم المستمر تلك الأدلة التى يمكننا الآن إدراكها بفضل المستكشفات الحديثه والاثار السحيقة في القدم وطول العهد مع تقدم العلم واطراد سمو الفكر البشرى ، ذلك الاطراد الذى لايمكن لاحد ان يتنبأ له بمدى غاية يقف عندها أو نهاية معلومة يصل اليها

نعم سأقدم بين يدي الثقافة والعلم جملة من هذه الأدلة يمكن لمن يعتقد مذهب داروين على وجهه أن يستدل بها ويتيسر لى الآن أن أجعلها كباقة أزهار عطرة تحية لاساتذتنا الأفذاذ اولائك الذين خلدوا أنفسهم بما كتبوا عالياً فى هذا الصدد وغيره واولائك الذين أتشرف اليوم بمشاركتهم فى الموضوع واضافة أفكارى المتواضعة لافكارهم الجبارة التي لها فضل على الانسانية كلها والعالم أجمع

ثم وهناك حقيقة ينبغى أن تعرف ذلك ان هذا المذهب هو فى الاصل لعلماء فرانسيين تجاوبت به أفكارهم المتقدة منذ عهد

بعيد منهم ماييه وايتين ولامارك وليس للعلامة داروين فيه غير اظهاره بعد الخفاء والمجاهرة به فى الأوساط الثقافية وبين ظهرى شباب بريطانيا الهادىء الرزين

واليك الأدلة

أولا ما اثبته النطاسيون من أن القرد يشارك الانسان فى عدة امراض لا يشاركه فيها غيره من الحيوان منها السل فلقد وجدت فى ءاثار مصرية جثة كثيرة للقردة والانسان قد ظهر فيها أثر الاصابة بالتدرن الرئوى كما يوجد بدار الاثار بالقاهرة أجسام منحطة وفيها قروح درنية الأمر الذى يدل على أن هذا الداء وجد في الانسان منذ عهد بعيد وشاركه فيه القرد

ثانياً عملية الترسيب فراسب القرد كراسب الانسان لا يختلف عنه ولو قليلا

وهاذا لا يدلنا على القرابة الدمـــوية فقط بل يزيد عليها بأن تراكب معدته كتراكيب معدتنا ومن العجب كون التشريح لم يفدنا عن ذلك شيئا

وعملية الترسيب هاذه نرى بعض المحاكم الأجنبية — فى الوقت الحاضر — يستند اليها فى تحقيق الجرائم ويعتبرها القضاة كاكبر الحجج وأقواها لما علم عندهم عنها من الصحة وعدم التخلف

ثالثاً التطور الذى يتطوره الجنين فى بطن امه فمن علقة

الى جنين طوله من 12 الى 15 سنتيمترا وثقله من 100 الى 125 غراماً الى أن يتضاعف وزنه وتظهر في راسه شعرات بيض مع تميز الفم والانف ولا زال يتقلب من طور الى طور الى أن يبلغ طوله فى الشهر التاسع من 50 الى 60 سنتيمترا ووزنه من 3 كيلو الى 5 وقد يزيد الى 6 كيلو كما شوهد في بعض الاطفال

وهاذا التطور ليس خاصا بالإنسان فالحيوان كله يتقلب فى بطن امه الحنون وتمر عليه أطوار يزيد فيها شيئا فشيئا حتى تتم خلقته ويكمل تكوينه بقدر ما يستطيع أن يجابه صدمة الحياة وتقلب الطبيعة فى الكون

رابعا ما يوجد في الانسان من أعضاء أثرية « كالاعور » هاذه الاعضاء التى كانت تفيده يوم كان على حالته الطبيعية يعيش على الاثمار ويأوى الى غصون الاشجار يوم كان ياكل البقول علي طبيعتها والحبوب صلدة قوية لها من أسنانه رحى ومن معدته نضج وتسوية . أما الآن وقد استغنينا عنه فان الجراحين يستأصلونه فى الانسان ويرونه ذا فائدة فى غيره من الحيوان

ولنمسك الآن عن هذه الادلة ففى هذا القدر للمستعجل كفاية ثم لنكرر النظر فيها ولنكرر فهى بعد هذا وذاك لا نجدها تدل علي أن القرد أب للانسان كما يقول بعض الغلاة والمسرفين ممن حملوا نظرية داروين على ذلك فكانت مخالفة

للقرءان من كل وجه ومباينة له في وضوح وجلاء الأمر الذي نحن مضطرون كما قلنا في صـــدر المقال لتكذيبهم فيه وعدم موافقتهم عليه وانما هي دالة على أن كلا من الانسان والقردة متحدر من أصل واحد يعبر عنه علماء الغرب بالحلقة المفقودة أو الأصل المجهول ويجعله بعض علماء الاسلام كابى بكر بن العربى فى قوله عز وجل « فقلنا لهم كونوا قردة خاسئين » هو ءادم نعم هو محجوج بما رواه مسلم عن ابن مسعود رضى الله عنه قال لمن سأله عن القردة والخنازير أهي مما مسخ : إن الله لم يهلك قوماً فيجعل لهم نسلا وان القردة والخنازير كانوا قبل ذلك من هذا الوجه الذي ذكره أبو بكر بن العربى مع ما حملنا عليه نظرية داروين يمكننا أن نوفق بين العلم والدين ونجعل القرءان سابقاً للكشف عـــن حقيقة علمية لم يقدر للبشر معرفتها حتى الآن

وهذا الذي قاله خاتمة علماء الأندلس هو ظاهر القرءان وهو الذى يساعده العلم أيضاً نعم الحديث المذكور عن ابن مسعود يخالفه والعلم عند الله

التخصص وبعض مظاهره فى الثقافة العربية

كل أمة يقاس رقيها الذهبي وسموها العالى بسعة ثقافتها ووفرة علومها وءادابها ونجاح فنونها ومبتكراتها ، الأمر الذى طبع الله عليه الخليقة منذ بدايتها الى الآن ، وجعلها مفطورة على اعتباره مع كر القرون وتطاول الأزمان

وليست الثقافة بمتوفرة ولا العلوم ببالغة أوج الكمال سواء فى الفرد أو الامة إذا لم تكن هناك نزعة صحيحة وميل جدى لنوع من أنواع الثقافة وناحية من نواحيها الكثيرة تخصص بالدراسة والبحث والمقارنة والاستنتاج والمحاضرة والتاليف الى غير ذلك . فالثقافة مهما بلغ مداها وتكاثفت وشائج عراها الا وليست مغنية عن صحة النزعة والتوجه الصادق نحو التخصص فى العلوم ، والآداب والمخترعات والفنون

إذ من اليسير التبسط في أنواع الثقافة ، والتبحر فى كثير من الاتجاهات العلمية ثم يكون التحصيل على معارف الاولين والاخرين ويقع تدوين أساطير المتقدمين واخبار الغابرين الى غير هاذا ، ولكن كل ذلك فى الحقيقة حبر على ورق وبعد بالعلوم عن جعلها ملكة للمتعلمين ناضجة فى ذهنهم ممزوجة

بدمهم ممثلة فى أجسامهم

ويمكننا أن نضرب على ذلك مثلا فاهاؤلاء الاغريق مهما تتبعنا نواحى ثقافتهم وأنواع معلوماتهم ومعارفهم إلا ونجدها فى عددها قليلة وقليلة جداً . إذ هى لا تتعدى الفلسفة والرياضة والفلك والطبيعة والحياة والطب مع كونهم نفخوا فى الثقافة العامة من روحهم ، وغدوا الأجيال بصادق ءارائهم وافكارهم وأمدوها بنتائج قرائحهم المتقدة وذكائهم المشتعل حتى أن الفلسفة لا زالت الى الآن عالة على سقراط وافلاطون وَأرسطو ومن اليهم من فـــلاسفة اليونان ولو لم يكن من اثرهم إلامدرسة جنـديسابور التى احتاج أبو جعفر المنصور لاحد أطبائها واستجلبه لعجز أطباء بلاده عن معالجته لكفى فقد حكى القفطى صحيفة 152 ان أبا جعفر المنصور عند ما بني بغداد اصيب بمرض فى معدته فلم يستطع أطباؤه معالجته فدلوه على جرجيس إبن بختيشوع رءيس أطباء جنديسابور ومن ذلك الحين اتصلت قصور الخلفاء بالمدرسة الرومانية حتى أن الرشيد أمر جبريل ابن بختيشوع أن يعمـل ببغداد بيمرستـاناً على نمط بيمرستـان جنديسـابور وقلده رياسته

نعم إن أنواع العلم واختـــلاف الفنون كان قليلا فى الاغريقيين وقليلا جداً ولاكن نزعتهم لما نزعوا اليه من ذلك

كانت صحيحة وقوية

فقد كان أرستوطاليس منهم يجمع العشب من شرقى افريقية وجزيرة العرب وغيرهما من مختلف البلدان وكان يرتبها ويفرزها ويضع أسماءها ويذكر خواصها وأبدع أوصافها وكان يجمع من حيوان البحر الشيء الكثير وياخذ في تشريحه بمشرطه جاداً في البحث عن أخص أوصافه ومميزاته الطبيعية ثم يضع عنه ما لا يزال الى الآن في الطب قانوناً يحتدى ودستوراً شاملا يرجع اليه

فهاذه النزعة الصحيحة أو التخصص كما نسميه هو الذى أوجب الخلود لهاذه العلوم وجعل العالم يستفيد عنها ويكرع من منهلها الصافى من أقدم العصور الى الآن

ففى جامعات أوربى علوم تعرف بالإنسانيات هى علوم اليونان وءاثارهم وناهيكم بهاذا الاسم الذي تحمله وهو الانسانيات

وعلى العكس من اليونان براهمة الهند ومنادرة الصين فهاؤلاء قد كتبوا ما لا يحصى والفوا ما نحن عاجزون عن استقصائه وتتبعه ولاكن ما ذا أفادهم ذلك فى تقدمهم العرفاني ونضوج ملكاتهم العلمية ، فلقد كانوا يحملون ذلك فى أذهانهم كما تحمل أضابر المكاتب أسفارها فلاهو يرتقى بهم ولا هم يتقدمون به ذلك لانه خلو من وحى الرقى وعظمة الاستنتاج والاستنباط ولأن الكثرة الى غير حد وفى غير جدوى تذهب بكل شيء

فالتخصص إذا هو الذى يجعل ثقافة الأمة خالدة على الاجيال ويحليها بشارة التفوق العرفانى ورمز الحياة الباقية مدى العصور ولهاذا رأى كثير من أيمة ثقافتنا العربية وجهرة رجالها الخالدين إن نضوجهم الفكري فى كثير من نواحى المعرفة ووجوهها لا يأتى اكله شهياً وثمره جنياً حتى يوجه كذلك نحو غاية يخوض غمارها من جديد ويسبح فى بحرها الطامي المتراكم الزبد فيطفو الى السطح وفى قبضته لامع الدرر واجمل اليواقيت تلك التى يتخذها العاملون من ورائه للغاية نفسها رمز هداية ورائد توفيق وصلاح

من هاؤلاء الفيلسوف الشهير أبو الوليد بن رشد فقد كان واحد زمانه فى الفقه والخلاف والحديث والتفسير وغير ذلك الامر الذي جعله مكينا عند المنصور ووجيها فى دولته

حكى ابن أبى الصبيعة قال حدثنى القاضى أبو مروان الباجى أن المنصور لما كان بقرطبة وهو متوجه لغزو الفنس عام إحدى وتسعين وخمسمائه استدعى أبا الوليد إبن رشد فلما حضر عنده أجله كثيراً وقربه حتى تعدى به الموضع الذي كان يجلس فيه أبو محمد عبد الواحد بن الشيخ أبى حفص الهنتاتى صاحب عبد المومن وهو الثالث أو الرابع من العشرة وكان أبو محمد هذا قد صاهره المنصور وزوجه بابنته فلما قرب المنصور إبن رشد وأجلسه الى جانبه حادثه طولا ثم خرج من عنده فوجد جماعة

الطلبة وكثيراً من أصحابه ينتظرونه حيث اخذوا يهنئونه بمنزلته عند المنصور وإقباله عليه فقال والله ليس هذا مما يستوجب الهناء به فان أمير المومنين قد قربني دفعة الى أكثر مما كنت املى فيه أو يصل رجاءي اليه الخ. وكان ابن رشد رحمه الله تفرس إذ ذاك بما سيقع له مع المنصور وما سيعامله به هاذا فى آخر الأمر — وفراسة المومن قلما تخطىء — وكذلك فان ابن رشد قد حظى عند أمير وقته وحصل على شهرة ذائعة بين معاصريه واهل زمنه

ذلك لكثرة ما الف فى أنواع المعرفة والعلم وعظيم ما أملى من دروس نافعة كون بها كثيراً من الافكار الراقية والعقول التي بلغت نضوجها الاعلا وسموها الرفيع ولكنه أخيراً اشتغل بكتب أرسطوطاليس وما كتب عنه من ءاراء فى فلسفته اليونانية وتخصص لذلك حتى وضع فيه عشرات الكتب ومأت الرسائل ويدلنا على تخصصه هذا مؤلفاته عن أفكار هذا الرجل العظيم فهي تدل بتاريخها على ان هذه المؤلفات هى من ءاخر ما كتب ابن رشد فى حياته من جملتها تلخيص كتاب ما بعد الطبيعة لأرسطوطاليس وتلخيص كتاب البرهان له وتلخيص كتاب السماع الطبيعي له أيضاً وشرح كتاب السماء والعالم وتلخيص كتاب النفس وغير ذلك مما يطول تعداده ومما كتب فى هذه

الناحية الفلسفية تلك التى كانت سبباً فى القضاء على سمعته وتقويض ما بناه من مجد عرفانى استطاع أن يتفوق به على أبناء عصره ويحصل على قصبة السبق بين أقرانه ونبغاء مصره وكذلك فذكاء المرء محسوب عليه والفكرة النابغة قلما تجد فى أول الأمر انصاراً أوتحصل على معتنقين واتباع بل على العكس لا تجد فى الغالب الا معانداً أو جاهلا فتكون سبباً للقضاء على مميزات صاحبها والنيل من قيمته الادبية ومكانته العليا ومنه ما وقع لهذا الرجل العظيم

حكى الأديب ابن الصبيعة فى طبقاته قال لما اشتغل الاديب ابن رشد بكتب أرسطوطاليس فى اخر عصره نقم عليه ذلك المنصور وامر أن يقيم فى اليسانة وهى بلد قريب من قرطبة فكابد ابن رشد فى منفاه هذا كل الشدائد والارزاء وبقى هناك الى أن تشفع له عند المنصور أبو جعفر الذهبي فاصدر اذ ذاك عفوه عنه

ومن جملة هؤلاء الذين اشتغلوا فى أول أمرهم بانواع المعرفة وكثير من نواحى الدراسة والبحث والفوا واملوا في ذلك الشيء الكثير ثم تخصصوا بعد هذا وذاك لغاية واحدة حجة الاسلام أبو حامد الغزالى الف فى اول الأمر كتاب الوسيط والبسيط والوجيز والخلاصة والمستصفى وغير ذلك من كتبه الخالدة وكان

يلقى دروساً مفيدة بالمدرسة النظامية ببغداد وغيرها . واخيراً انقطع للزهد والتقشف والدين المتين والعبادة القويمة معرضاً عن الناس متوجهاً الى ربه باذكاره اللذيذة الحلوة ودعواته الصوفية الجميلة تلك التى تملا القلب نوراً بنفحاتها العلوية وتهز كيانه بنغمات ألحانها العذبة الشهية تلك التي هى اغرودة خالدة فى عالم الفناء تنفث السحر وتصل عالم الارض بعالم السماء ولا زال فى خلوته هذه حتى طهر قلبه وصفت سريرته واذ ذاك فتح الله عليه بعلم ما لم يعلم فاشتغل بوضع تاليفه احياء علوم الدين الذي لم يؤلف فى الاسلام مثله فى بابه لاقبله ولا بعده وما كان كذلك فى نظرنا الا بفضل تخصص الغزالى اخيراً لعلم الحقيقة وانقطاعه لها مضحيا فى سبيله بكل عزيز وغال

ثم وهناك مما هو جدير بالذكر في طريف موضعنا هذا شخصية بارزة وكم للادب العربى من شخصيات طواها النسيان واغفلها قلم قادة الكتابة فى العصر الحاضر وما يدريك لعل السعد طواها للانتاج المغربى الاخير فكانت واحدة الايات ومعجزة مما ابداه من فاخر المعجزات واشرفها . هذه الشخصية التي — وكما قلنا — تتصل بوثوق مع موضعنا الذى نكتب حوله قد قال صاحبها الشعر فى مختلف اغراضه واخيراً تخصص للغزل فقال فيه ما سيظل انشودة الدهر الخالدة وءاية الجمال

الفنى فى الشعر العربى

فحديثى كالدر فصل باليـــــاقوت يجرى فى جيد ظبي أغني

حدث الاغانى فى الجزء السابع عشر صحيفة 158 لما ذكر أخبار بكر بن النطاح ونسبه قال حدثنى هاشم ابن مدد قال أنشدنى أبو غسان بكر ابن النطاح يتشوق الى بغداد ويتغزل

نسيم المدام وبرد السحر * هما هيجا الشوق حتى ظهر

تقول اجتنب دارنا بالنهـا * روزرنا إذا غاب ضوء القمر

فان لنا حرساً إن رأو * ك ندمت وأعطوا عليك الظفر

وكم صنـــع الله من مرة * عليهم وقد أمروا بالحذر

سقي الله بغداد من بلدة * وساكن بغداد صوب المطر

ونبئت أن جوارى القصو * ر صيرن ذكرى حديث السمر

الا رب سائلة بالعـــرا * ق عني واخرى تطيل الذكر

تقول عهدنا أبا وائل * كظبي الفلات المليح الحور

ليالى كنت أزور القيا * ن كان ثيابى بهار الشجر

هاذا الشعر فى عذوبته ورقته ورنين جرسه ولطيف نبرته ما كان الشاعر ليسوغه نفحة النسيم وجاذبية القد الأهيف لولا أنه تخصص للغزل فسبر غور ماهية الجمال واوتي خبرة بحقيقة فتنة العقول وسر الإبداع فى كل شيء ومما نسبه له

الأغانى قوله فى رمشانة جارية بعض الحنفيين

اكذب طرفي عنك والطرف ساهر واسمع اذني منك ما ليس تسمع
ولم أسكن الارض التى تسكنيها لكي لا يقولوا صابر ليس يجزع
فلا كبدي تبلا ولا لك رحمة ولا عنك اقصار ولا فيك مطمع

الى آخر هذه القصيدة التى شاء لها جمالها الفني البديع أن تكون انشودة الروح في عصر النور وعصر النضوج والكمال وتلك ءاية الخلود وشارة التفوق والابداع

وبعد فهذا مجمل دراسة بسيطة لموضوعنا القيم وأرجوا أن اوفق فى سانحة اخرى لأتناوله باسهاب وتلك امنية وتحقيقها بيد الله

الادب العربى فى رعاية امرائه

مهما بحثنا في تاريخ الادب العربى إلا ونجده قد نال من تشجيع امرائه فى مختلف العصور ، ما لم ينله أدب امة اخرى ، حتى أخذ كتاب العرب ومسجلوا تاريخ ادبها ، يجعلون ذلك التشجيع من أهم الاسباب لازدهار الادب العربى ، وتفوقه عالياً فى مختلف الميادين وكل العصور

غير أن الباحث المدقق والمطلع الخبير ، لا يسلم وبالبداهة هذه النظرية بل يراها بالعكس وعلى طول الخط — كما يقولون ذلك ان الامراء يوم أغدقوا على الشعراء ، ومنحوهم تلك الجوائز الضخمة والعطايا البليغة التى قاربوا بها حد التبذير أو كادوا لم يقصدوا الانهاض من الادب العربى لذاته ، ولا تشجيع الفن لنفسه ، بل كانت لهم غايات شخصية ومآرب سياسية معروفة كان يتوقف عليها نظام إدارتهم ، وسير حكومتهم في الطريق الموافق لما فى نفوسهم من ميول ، وسياستهم من أغراض ، فمن مناضلة أعداء الى بعد صيت ، ومن تاييد دعاية ، الى توسع فى دائرة سياســـــة وملك

ويدلنا علي ذلك أن هؤلاء الامراء كانوا لا يتطلبون من

فنون الشعر واغراضه غير المديح وكيل الثناء بالمد قنطاراً ، فهل هناك واحد منهم أجاز شاعراً لنبوغه فى النسيب ، وتفوقه فى الوصف ، وهل تجد منهم من أثاب على بيت حكمة ، أو قطعة جرت فى الناس مجرى المثل

إن الشعر هو الشعور المطلق الصادر عن دافع وجدانى وعامل نفسى قوي لا يرى معه الشاعر محيداً سوى أن يسجله قصيداً رائعاً يخلده على الاجيال ، ويكون أنشودة الحياة وترجيع العصور الاتية من بعده . وهذه صفة تنقص شعر المديح الذي لا يصدر الا عن دافع مادى ، وصلة بعيدة عن نفس الشاعر ووجدانه ، بل فقدان هذه الصفة فيه هو الذي جعله مشوبا بالتهويل الرائع ، والمبالغة الكاذبة ، والاسفاف الوضيع والاحالة الدنية ، وهو أيضاً الذى جعله لعباً بالألفاظ واصطناعا للمحسنات وإغراء لناظميه علي السرقة من متقدميهم ، وتعاور معانيهم توليداً وتخريجا وابتذالا . وما كان المدح والاطناب فيه يقف بالمداحين عند هذه الغاية ، بل جر عليهم غرضا آخر من أغراض الشعر كان لازما للمدح وقلما ينفك عنه ذلك هو الهجاء . لان ارضاء الممدوح كان يستتبع ذم خصومه ، أو ذمه نفسه اذا هام الشاعر فى واد غير واديه وانقلبت اطماعه منه الى غيره . وايضا فان المداحين كانوا يتنافسون علي التقرب من الامراء ونيل جوائزهم

السنية وربما يزاحـــم بعضهم بعضا على ذلك فيتبادلون الهجاء ويتضاربون بنبـال السباب والشتم ، والزراية والتنقيص . وكان الامراء يستثمرون ذلك منهم ، ويشجعونهم على تراشقهم ببذيء القول ، شغلا لاذهان العامة ، و توجيهاً لافكار الناس فى غير شؤن الامارة واحوال السياسة والملك

ولعله من ثمار هذه النزعة تلك القصائد المقذعة ، والمطولات الهجنة التى كان يتبادلها جرير والفرزدق والأخطل وكان ياخذها عنهم الرواة فيرددون صـداها فى معظم الشرق العربى إذ ذاك على رغم ما انطوت عليه أحيـــاناً من بعد سحيق عن حدود الشرف ، وقوانين المروءة والنبل ، وما لا تسيغه رجولة قط

نذكر كمثال على ذلك ما نقض به الفرزدق قصيـدة جرير التى مطلعها

لولا الحياء لهاجني استعبار * ولزرت قبرك والحبيب يزار

وهى موضوعة فى رثاء جرير لامراته ، وقد نقضها الفرزدق دون أن يرعى للميت حرمة ولا للمراة كرامة ومن نقضها قوله

كانت مـنافقة الحياة وموتها خـزي عـلانية عليك وعار
فلئن بكيت على الاتان لقد بكى جزعاً غداة فراقها الأعيـار
تبكي على امراة وعندك مثلها قعساء ليس لها عليك خمار

« « « « « « « « « « « « «

إن الزيارة فى الحياة ولا أرى ميتا إذا دخل القبور يزار

أنتج المديح هذا الغرض من الشعر ، وغرضاً اخر هو أبعد من الاول عن الشاعرية ، واكثر منه إغراقا واسفافا وغرابة ، ذلك هو النسيب الاستهلالى الذى لزمه كثير من المداحين فى أول قصيدهم ، وعملوا به على التشبه باخوانهم شعراء الجاهلية كامرء القيس والنابغة الدبيانى وغيرهم كثير . وناهيكم بما يمكن أن يجر فى ذيوله هذا النوع من الشعر ويجنيه على الناس من رخاوة طبع وميوعة أخلاق وقتل للعزة ، وقضاء على الغيرة والشهامة

فالحق ان شعر المدح لخلوه عن الدافع الوجدانى ، والشعور الصادق ، قد جر على الادب العربى جميع هذه النقائص واخرى على غرارها ، هى فى الحقيقة أشد منها ضرراً واهم وقعا

منها ما فشى فى الشعر العربى كله من عيوب المبالغة والتقليد ، ومحاولة ابداء البراعة والصناعة اللفظية

ومنها إضاعة جانب ضخم من عبقريات كثير من الفحول كأبى نواس وابن الرومي والبحترى والمتنبي والطاءى وغيرهم كثير من الذين استرقتهم هبات الامراء وجوائز الملوك والسلاطين فنظموا كثيراً من الاكاذيب ودونوا ما لا يحصى من المفتريات والأراجيف مثل

وقد زعموا أن النجوم خوالد ولو حاربته ناح فيها الثواكل

ومثل

ما نوال الغمام وقت ربيع كنوال الامير يوم سخاء

فنوال الامير بدرة عين ونوال الغمام قطرة ماء

ومثل

تعود بسط الكف حتى لوانه ثناها لقبض لم تطعه أنامله

ومثل

تكاد عطاياه يجن جنونها إذا لم يعودها بنغمة طالب

فها نحن نرى الى أى حد خرج المديح بفحول الشعر ، ومن بعدهم امراء البيان ، وقادة الادب العربى ، فمن كذب سخيف ، الى تفاهة معنى واستحالتها ، و من فارغ قول وسفسافه الى تقييد لأغراض الشعر ومذاهبه

ولو أن هؤلاء الشعراء عبروا عن شعورهم الصحيح وتوفروا على الفن لذاة الفن ، لربحت منهم لغة الضاد ربحا جزيلا ولرحبوا من آفاقها واطرافها ، ووسعوا من أغراضها وأوضاعها

ولاكنها جناية تشجيع من سلف من الامراء ، وعاقة تقريبهم الشعر من المادة ، وإبعادهم له بذلك عن أن يكون ترجمانا للعواطف ، وتعبيراً عن مشاعر النفس ونبضات القلوب ووصفا للكون فى روائعه ، والوجود في أنبل والطف مشاهده

هذا ويوجد الآن فى حاضر الشرق العربى كثير من النابغين الأفذاذ كرسوا جهودهم لخدمة الادب العربى ، وتفوقه عاليا فى مختلف الميادين ، فان قدر لاخواننا ادباء المغرب الاقصى أن يشاركوا إخوانهم الشرقيين في هذه النزعة الصالحة الموفقة فقد برهنوا على جدارتهم سلفا ، وما يوم العرش — دام صاحبه — ببعيد

اثر العقل فى الجسم

من المشاهد أن أبناء الحرفة الواحدة ، والمتعاطين لمهنة خاصة ، عندما يطول زمن عملهم فيها ويمتد وقت مزاولتهم لها ترتسم على وجوههم سحنة واحدة ويطبعها طابع واحد فملامحهم إذ ذاك متشاكلة وصحايف وجوههم متشابهة حتى لا تكاد تفرق بينهم فى شيء

فلكل من المحامين والاطباء ، والادباء وغيرهم ، ملامح خاصة وهيئة واحدة لا تختلف

ومن المشاهد أيضاً أن الانسان اذا خجل واشتد به الخفر والحياء سرعان ما تتورد وجنتاه ويحتقن خداه بالدم ، واذا خاف امتقع وجهه وهرب الدم من ظاهر جسده وبشرة جسمه وقد يشتد به الخوف أحياناً فتضطرب ذاته وتتسع فيه الاوعية الدموية ويجف الريق

فالانفعالات النفسية السارة تزيد أعضاء الجسم خفة وسرعة فى تادية أعمالها الطبيعية ووظائفها الموكولة اليها ، وهي بعكس الانفعالات المحزنة فهاذه تمنع أجهزة الجسم من تادية وظائفها

المنوطة بها على الوجه الأكمـــل ، وتجعلها بطيئة الحركة غير قائمة بمامورياتها الخاصة

نستنتج من هذا أن الجسم تابع للعقل عامل بارادته منصب فى القالب الذي يهواه حتى ولو اختل توازن العقل اختل معه نظام الجسم كله

ومما يشع ضوءاً على هذه النظرية و يزيدها جلاء ووضوحاً ما نراه في الزوجين حينما تطول عشرتهما ، ويمتد الى عدة سنين اجتماعهما من انطباع سحنتهما بطـــابع واحـد وعدم اختلاف مظهرهما في شيء ، حتى لتحسبهما أخـوين يشتركان فى الدم ، وتجمعهما ارومة واحدة والواقع أنهما قبل الزواج غريبان لا تصلهما قرابة ولا تربط بينهما رحم ما

وهكذا كل امة اشترك أفرادهـا فى دين أو أدب أو لغة تجد اتجاهها واحداً وتفكيرها واحداً وسيمتها واحدة لا تختلف

وتعليل هذا هو أن الناس إذا اشتركـوا فى شيء حـرفة أو صناعة أو لغة أو أدب أو غير ذلك ينساق تفكيرهم مساقاً واحداً ، وتتجه أذهانهم لشيء بخصوصه ، فالعقل إذ ذاك مطبوع بطابع واحد وله لون خاص ، وهو لما له من السيطرة على الجسم وقوة النفـوذ فيه يترك اثر تلك الصبغة على الوجه ، ويرسمهـا بجلاء ووضوح في تقاسيمه وتقاطيعه

وهذا سر ما نرى من دلالة الخلقة على العقل ، فالشعراء دائماً وفى كل عصر يتغنون ببهاء الطلعة ، ورفاهية الحسن والجمال معبرين بذلك عن السمو العقلي والتقدم الذهنى فى ممدوحيهم وابطال قصيدهم الممتاز ، يقول بلبل العراق الشادي محمد المهدي البصير من قصيدة له عنوانها الجمال والدلال

لك ياقاتلي لحاظ غزال بعثت في نزعة مضرية
لم تحرك عواطف الحب إلا هيجتني فحركت لى روية
أسكرتنى شمائل لك رقت هى ولله خمرة بابلية
آه كم قد سحرتنى بحديث صورت فيه روحك الأدبية
فتبسم مع الحديث بثغر أشبهته الفاظك اللؤلؤية
أقرأتنى بك الطبيعة شعراً رسمته أقلامها المعنوية
من جمال إلى دلال بغنج في حياء بعفة مريمية

ويقول بعضهم فى مدح الرسول عليه السلام

لو لم تكن فيه آيات مبينة لكان منظره ياتيك بالخبر

ذكر أبو العباس سيدي أحمد بن محمد ابن الحاج في تاريخه ان الامام أبا المحاسن الشيخ عبد القادر الفاسى كان كثيراً ما يتمثل في السلطان الأعظم مولانا إسماعيل بهاذا البيت

تعرف فى عينيه نجابة كانه بالذكاء مكتحل

مثل ما عرف فى مولانا المنصور بالله سيدي محمد بن

مولانا يوسف خلد الله ملكه وزاده مجداً وفخراً

فالثقافة والنزعة والمذهب كل منهما يبرز من أعماق الذهن ويطفوا على سطح الوجه وتقاسيم المحيا

فالجسم أو بالأحرى الوجه من الانسان صورة مصغرة لما يختلج فى ذهنه من الاراء وما يتعاقب عليه من أفكار واعتقادات فهو كالمرآة يتمثل على مسرحه ما يضمره العقل ويظهرفيه جلياً واضحاً

ولرب خافية يكتمها الفتى والوجه منه بسرها يتكلم

كل يشير الى السريرة وجهه فكأنه بضميره متلثم

فاختلاف الامم ناشيء عن الاختلاف فى النزعة والثقافة وعدم وحدة الراي أكثر مما هو ناشيء عن الاوساط الطبيعية التي يعيش فيها الانسان ويمد نفسه كل حين بمختلف أمدادانها

ويمكننا أن نتوسع فى هذه الظاهرة النفسية فنقول أن الوجه فى الإنسان لا تمكث سحنته على حالة وَاحدة بل تتطور بتطور النزعة وارتقاء أساليب الثقافة والتعليم أو انحطاطها فعرب اليوم فى تقاطيع وجوههم وسيماهم المميزة لهم ليسوا هم عرب الصدر الاول وهؤلاء ليسوا عرب ما قبل البعثة وهكذا

فالناس تختلف فى صورها كما تختلف فى اعتقادها ونزعاتها وآدابها ثم يتطور فيهم الشكل بتطور ذلك كله

ومع هذا فلسنا نجهل أثر الوسط الطبيعي فى جسم الأمة

وبالاحرى فى تقاطيع وجهها ، وتقاسيم سحنتها ، فالجو المغربي — مثلا — يجعل البشرة بيضاء لبرودة الطقس وعدم الاحتياج الى صبغة تدفع الحر وتصد اللهيب ، كما أنه يجعل الانف ضيقاً ليمنع الهواء من مفاجاة الرئة بقدر كبير يوديها ، ويجعلها غير مستطيعة لتأدية وظائفها الطبيعية

أما الزنجى فطبيعة بلاده الحرارة واليبوسة ، ولذلك وهبه الله لونا السود يجابه به ألم الحر ولفحات الهجير ، وانفا أفطس ليتمكن من جلب الهواء الكافي لرئته ، نعم هو إذا نشأ فى وسط بارد وطبيعة لينة وتثقف بثقافة ذلك الوسط فكرع من منهله فى كل أصناف المعرفة لا يلبث أن تتبدل خلقته ويطبع بطابع ذلك الوسط الذي عاش فيه

والخلاصة أن العقل متبوع والجسم تابع له ، ولذلك يقولون القوة أصل المادة فالوظيفة أصل العضو لا العضو أصل الوظيفة ، فنحن نسمع لان لنا وظيفة هي السمع لا لوجود حاسة السمع فى ذاتنا ، ونحن نبصر لان عندنا وظيفة النظر لا لوجود العينين فينا وهكذا

فالقوة سابقة على المادة عاملة فى الحياة بواسطة الأعضاء فالأعضاء منفذة ، والعقل آمر وحاكم ، والكل بقدرة الله

العبقرية والنبوغ وأثر الوراثة فيهما

يرى كثير من الناس أن العبقرية والنبوغ هما الظهور بمظهر التبريز على الأقران ، والبلوغ لنهاية الكمال وأوج العظمة والفخار ، فالشخص لا يكون عبقرياً فى نظر الجمهور حتى تتوفر فيه جميع صفات التفوق ، ويستكمل كل دواعى السيادة العليا والمجد الأثيل

وهذا صحيح من جهة فالعبقرية والنبوغ هما الظهور بمظهر التبريز حقا وهما عنوان العظمة وشارة الخلود حقا ، ولكن ليس العبقري والنابغة من يستجمع كل صفات السودد ويكون كاملا فى كل نواحى الحياة ومحصلا على الدرجة القصوى فى جميع مجالى الرقى ومرامي النبل والشرف ، إذ لو كان ذلك كذلك لما رأينا واحداً من هذه الكتل البشرية يمكننا الحكم عليه حكما صحيحا بكونه عبقريا ونابغة فما العبقرية والنبوغ من مدلولها الا مزاج فطرى فى بعض الناس يميل بصاحبه الى المبالغة والاستقصاء ويجعله غير قانع ولا مكتف بالوقوف عند ما دون الغاية التى يقصد والنهاية التي يترقب الوصول اليها فهو لا تسكن أعصابه ويهدأ باله حتى يدرك الغاية فيما يريد أو يهلك دونها

وعلى هـذا فالمتنبي عبقري لان مـزاجه مـزاج استقصـاء ومبـالغة ، لا يدع لفظاً فصيحاً أو كـلمة فخمة إلا وادخلها فى شعره وحلى بها جيد قصائده وغرر أبياته الخالدة ، الامر الذى انتهى اليه به الابداع الشعرى فكان آيته الكبرى وسيكونها ما دامت لغة الضاد والشعر الحي من معجزاتها

وما قلت من شعر تكاد بيوته إذا كتبت يبيض من نورها الحبر
كان المعـانى فى فصاحة لفظها نجوم الثريا أو خلائقك الزهر

ونابليون عبقرى لامعانه فى الفتوح واستيصـاله لغزو كل البلاد التى حـدثته نفسه بالاستيلاء عليها وَاخضاعها لقوة سيفه وبعيد أطماعه السياسية حتى قال فيه الاستاذ محمد قاسم فى كتابه تاريخ القرن التـاسع عشر إنه كتلة من الصخر الصلد ارسلت الى العالم فلا تخضع لشيء من نواميس الطبيعة . والمولى إسماعيل عبقرى لموالاته العمران وكثرة شغفه بالأبنية الضخمة واستيصاله لتشييد القصور الشاهقة حتى أنه كثيراً ما كان يردد قول القائل

همم الملوك إذا أرادوا ذكرها * من بعدهم فبألسن البنيان
إن البنـاء اذا تعاظم شانه * أضحى يدل على عظيم الشان

وناهيك بقصبة مكناسة الزيتون المشتملة على عشرين باباً كلها ذات أبراج عظيمة ، فيها من ضخامة البناء ما يقضى بالعجب ويجعل العقل أمامه مندهشاً كما اشتملت على حـدائق وبسـاتين

فى داخـل الكل بركة واسعة تسير فيها الفلك والزراويق سقى الله تلك الأيام قال صاحب البستـان ولم تزل تلك الابنية على طول الدهر قائمة كالجبال لم تأثر فيها عواصف الرياح ، ولا كثرة الأمطـار والثلوج ولا آفات الزلازل التى تخرب المبانى العظـام والهياكل الجسام . وهى كذلك الى الآن وقد مضى عليها مـن عهد الكاتب نحو من مائة وسبعين سنة . فمزاج المتنبي والمولى إسماعيل واحد فى طبيعة الميل الى الاستقصاء والعمل على الوصول الى مرماه البعيد ، وان كان متعدداً فى النهاية المقصودة والغاية المرجوة ، تلك التى تختلف باختلاف العوامل التي تكون مزاج العبقري ، والأشياء التى تتوفر على إيجاده وتنشئته

ويدلنا على هذه النظرية بعد اعترافنا بـأن العبقرية وراثة — وسندل عليه — ما نقرؤه وكثيراً في تاريخ جملة من الرجال العبقريين انهم ورثوا عن آبائهم مزاج العبقرية فقط أي حب الاستقصاء لا فى شىء بعينه كالفرزدق الشـــاعر الشهير فانه ينتمى الى صعصعة التميمى وهو صحـاب جليل مشهور باحيـاء الموؤدة وكان يبالغ في ذلك قيل انه أحيى الف مـــوؤدة وحمل على الف فرس وبه يفتخر الفرزدق في قوله

وجدى الذى منع الوئدات * فاحيى الوئيـد ولم يوئـد

قال ابن قتيبة في كتابه الشعر والشعراء صحيفة 183 وكان جد

الفرزدق صعصعة التميمى عظيم القـدر فى الجاهلية وما زال يشترى الموؤدات حتى جاء الله بالاسلام ، فجد الفرزدق كان إذاً يبالغ ويتقصى فى فك الموؤدات فجاء حفيده الفرزدق وورث عنه هذا المزاج وهذا الاستقصاء ولكن لا فى فك الموؤدات بل فى غريب اللغة يجمعه ، ووحشيها يدمجه فى شعره ويراه حلية للغرر قصـــائده وعرائس نظمة حتى قيل لولاه اضاع ثلثا لغة العرب

وهذا الملهب ابن أبى صفرة قال القاضي إبن خلكان في ترجمته انه كان من اشجع الناس وأشدهم فروسية حتى انه منع الخوارج من دخول البصرة . وقد استقصى أبوا العباس المبرد فى كتابه الكامل جميع الحروب التى حضرها فى قتال الخوارج قال وفى كلها أبلى بـــلاء حسناً أبان فيه عن نجدة وشهامة وصرامة وأظهر بطولة نادرة وشجـــاعة عمياء وفيه يقول زياد ابن أبى سليمان الاعجمى

إن المهلب لن يزال لهافتى ... يمري قوادم كل حرب لاقح
بالمغريات لواحقاً آطالها ... تجتاب سهل سباسب وصحاصح
متلهفاً تهفوا الكتايب حوله ... لمح المنون من النصيح الراسح

قال أبو علي القالى فى كتابه ذيل الامالى لما ذكر القصيدة

وقد نسبها بعضهم الى الصلتان العبدي والصحيح أنها لزياد بن سليمان ، والخلاصة ان المهلب كان بطلا مغواراً ، صنديداً جباراً ، بلغ فى شجاعته الغاية القصوى واشرف على النهاية ، وهو فى ذلك وارث لآبائه اذ منهم مزيقاء ابن عامر ماء السماء قال صاحب الوفيات وانما لقب بذلك لكثرة جوده وعظم نفعه فشبه بالغيث . فها نحن نرى ان اباء المهلب كانوا يبالغون فى الكرم ويريدون بحسب المزاج الذى ركب فيهم الاستقصاء فيه وقد ورث المهلب هذا المزاج وهذا الحب للاستقصاء ، ولكن لا فى الكرم بل فى الشجاعة والبطولة . فالعبقرية وراثة ولو كانت غير مزاج الاستقصاء فقط لورث العبقرى عن آبائه العبقريين هذا المزاج مع الاتجاه الذي كانوا يتجهون اليه من كرم وشجاعة أو غير ذلك

فالنتيجة أن العبقرية ليست الا مزاجاً طبيعيا وراثيا يميل بصاحبه الى المبالغة والاستقصاء فى الشىء الذى يتجه اليه

اما كون العبقرية وراثة فهذا ما يدلنا عليه التاريخ البشرى وترشدنا اليه نواميس الحياة جيلا بعد جيل فكل عبقرى يحدث عنه التاريخ أو نراه باعيننا نحن اذا بحثنا عن أرومته نجدها أرومة شريفة طيبة الأصل عريقة فى السودد والمجد قال زهير ابن أبى سلمى

وهل ينبت الخطي الا وشيجه وتغرس الا فى منابتها النخل

وقال دريد ابن الصمة

وهل أنا الا من غزية إن غوت غويت وان ترشد غزية ارشد

ومن أمثال الفرس السائرة محال أن تقتطف من شجر الصفصاف ثمراً شهياً والقرآن نفسه قد أيد نظرية الوراثة هذه وقال بموجبها فى قصة مريم عليها السلام فاتت قومها تحمله قالوا يامريم لقد جئت شيئاً فريا ياخت هارون ما كان أبوك امرا سوء وما كانت امك بغياً يريد ما كان أحد من أبويك فاسقا فينتقل ذلك اليك عن طريق الوراثة فكيف جئت بهذا الولد ولست متزوجة فاشارت اليه الخ القصة وقال النبي صلى الله عليه وسلم تخيروا لنطفكم فان العرق دساس فالعبقرى اذاً لا بد من أن يكون من نسل عبقرى آخر وان كانت نواميس الكون وعادة الله فى خلقه بحسب ما نشاهده منها تدل على أن العبقرى قليل النسل وكثيراً ما يصاب بالعقم ولهذا يقولون ان الحى تقل قدرته على التناسل بنسبة ارتفاعه فى سلم النشوء والارتقاء أى أن الفرد يقل إنتاجه التناسلى بقدر عظم جسمه أو عظم فكره فاذا كان جسمه ضخما وجثته عظيمة فى راى العين أو كان فكره حاداً وعقله جباراً قد بلغ به حد العبقرية والنبوغ فعند ذلك يقل نسله

أو يصاب بالعقم بثاتا ولهذا يشير الشاعر العربى بقوله

صغار الطير أكثرها فراخا * وام الصقر مقلات نزور

ويعلل ذلك علماء الطبيعة فيقولون ان ما تصرفه الطبيعة على الفرد سواء فى تكوين عقله أو جسمه تطرحه مما تصرفه على نسله ولكن قانون التوحيد من معتقدنا يدفعه وربك يخلق ما يشاء ويختار ما كان لهم الخيرة ولله أمير الشعراء فى قصيدته التى عنوانها الله تعالى

الوهم يبعد فى الظنون ويقرب والعقل فيك مسافر متغرب
والفكر يهرب حيث أنت المهرب والنفس غايتها اليك تقرب
وقصارها فى عفوك استذراء

طبيعة الترف فى الحياة المادية والادبية

لسنا نقرؤ تاريخ دولة من الدول أو ندرس حياة أمة من الامم إلا ونجد الحجج المتكررة على أن الترف من أوضح الاثار فى انحطاطها وتأخرها وابرز العوامل فى سقوط أخلاق ابنائها وتضعضع مركزها المادى والادبى ولو كان ساميا . ولكن ما هو الترف ؟ عرفه اللغويون بالنعمة ورغد العيش ويمكننا نحن تعريفه بعبارة أوضح وهى انه استعمال أشياء غالية الثمن وليست من الضروريات لمستعملها بمعنى أن هذا المستعمل اذا أراد ان يتركها امكنه ذلك فى حين أن غيره ممن هو اكثر منه مالا واوسع نعمة لا بد له منها وهى من لوازمه الخاصة .

فعاملنا المغربى اذا اكل اللحم فى كل يوم ثلاث مرات وركب السيارة الخصوصية لنفسه واشترى الفواكه الغالية عد من المترفين وهذا بخلاف العامل الاوربى فانه يرى الحصول على هذه الأشياء ضرورة لا يعد من الترف فى شىء . فالحكم على الفرد أو الامة بالترف لا يكون الا بعد النظر فى العوامل التي تحيط بالمحكوم عليه والبيآت التى تكتنفه فان كانت قابلة للتوسع فى النعمة والتمتع برغد العيش وهنائه كان الترف

مفيداً بل ضرورياً لرقى الامة واستكمال نضوجها الفكري والادبى وكان من اقـــوى العوامـل فى تقـدم فنونها ونجاح مخترعاتها ومنتـوجاتها والفن كما يقولون ضرب من الترف فهو الاصل فى كل الصناعات والفنون الجميلة والمبتكرات بحيث ان هذه لا يمكنها ان تتقدم وتبلغ نضوجها التام الا بواسطته فالمخترع مهما لم يجد اقبالا على اقتناء مخترعه ذهبت حماسته ادراج الرياح وتاخر عن المضى فى عمله وكف غيره من الناس عن تقليده فالغني حيث يساق باي عامل لشراء الشيء الذى غلا ثمنه لا ننكر عليه ما دامت الامة وستجني ورائه نفعاً فى مستقبلها وهذا التاريخ يبرر لنا هذه النظرية ويجعل الحجج عليها متكررة ومتوالية فالدولة العباسية لولا اخـــذها باسباب الترف والنعيم واللذة ورفاهية العيش ولولا انها كانت تنفق الاموال الطائلة بغير حساب على الفقهاء والادباء والكتاب والفنانين والشعراء لولا ذلك كله اراياها تنجب للعالم العربي كثيراً من العلماء الاعلام والقادة الافذاذ اولائك الذين انهضوا من لغة القرآن وآداب الاسلام وادخلوا على الثقافة العربية فنونا من المعانى والالفاظ لم تالفها فمن اخيلة بديعة الى معانى دقيقة الى افكار جميـــلة ومن وَضع اسطلاحات للعلوم والاداب والصناعات والمخترعات الى توسع فى اقتناء الالفاظ الرشيقة المالوفة واكثار

من التانق فى صوغ العبارات الموثوقة الربط البديعة الانسجام

نعم ان الادب العربى والمعارف الاسلامية ما كانت لتبلغ حد النضوج وحد النهاية والكمال في عصر بني العباس لولا ذلك الترف الملوكي الذي دعى خلفاء بنى العباس الى التبارى فى السخاء والعطاء . حدثنا الجاحظ فى كتابه البيان والتبيين مجلد 1 صحيفة 139 نقلا عن طيفور قال قال يحيى ابن الحسن انى بالرقة بين يدي طاهر ابن الحسين على بركة اذ دعوت بغلام له فكلمته بالفارسية فشاركنا العتابى وكان حاضرا فى كلامنا فتكلم معي بالفارسية فقلت ابا عمرو مالك وهذه الرطانة فقال لى : قدمت بلدتكم هذه ثلاث مرات وكتبت كتب العجم التي في الخزانة بمرو ثم قدمت الى نيسابور فذكرت كتابا لم اقض حاجتى منه وقد كنت آخذ عليه مالا كثيراً من امير المومنين لو فعلت فرجعت الى مرو فاقمت اشهراً حتى ترجمته فقلت ابا عمرو ولم كتبت كتب العجم فقال لى وهل المعانى الا فى كتب العجم والبلاغة اللغة لنا والمعانى لهم ونحن ناخذ المال بين هذا وذاك . فهذا العتابى يحدثنا انه ما تشوفت نفسه لترجمة الكتاب الذى نسى الا لياخذ عليه لو فعل جائزة من امير المومنين ثم اكد ذلك اخيرا بقوله ونحن ناخذ المال بين هذا وذاك والحق ان العتابى الاديب

كان صريحاً فى قوله هذا كما عهدناه صريحاً وواضحا فى كل شىء فانظر الى قـــوله

فلو كان للشكر شخص يبين * اذا ما تامـــــله الناظر
لمثلته لـــك حتى تراه * لتعلم انى امرؤ شاكـر

الست تراه غير مكتف بابانة الالفاظ عما فى الضمير وكشفها لمكنونات النفس وخجلات الفؤاد بل هو يريد تجسيم المعانى وتشخيص المعقولات حتى يزيدنا ادراكا لما يقول وفهما لما يصدر عنه ولا اكثم زملاءى السامعين اننى مهما ذكرت الابيات التالية للعتابى الا واتمنى سماعها كغناء من شخص رخيم الصوت جميـــــل النبرات

مـا جف للعينـين بعـــــدك ياقرير العين مجرى
ان الصبـابة لم تـدع منه سوى عظم مبرى
ومدامـع عـــبرى على كيد عليك الدهر حرى

ولا غرابة فالعتابى تربى فى احضان النعيم ولقحه الترف ورغد العيش فقال هذا الشعر الخالد الذى هو قطعـة من الفن وشارة من شارات العبقرية والنبوغ ونحن ان قدرنا العتابى فيه فلسنا نقدر الا الرشيد الذى ادهشه يوماً بعطائه وكرر له الجوائز السنية والهدايا الرفيعة الامر الذى نعده ترفا ويراه تاريخ الادب والثقافة نوعاً من التشجيع ربحت منه لغة العرب ما هي مدينة

به حتى الأبد لها ولاء الامراء

ولله شاعرنا المغربى العظيم ابن الونان الحميري إذ يقول فى قصيدته الشمقمقية مخاطباً ممدوحه السلطان الأعظم والامام الاكرم أبا عبد الله سيدي محمد بن السلطان مولانا عبد الله

لولاك كنت للقريض تاركا * لعدم الباعث والمشوق

واي باعث للشعراء غير ترف الملوك ونيل الجوائز والصلاة وبذل الاموال الطائلة لهم فى كل المناسبات الأمر الذي سرى عليه ملوك هذه الدولة العلوية الماجدة وخصوصاً جلالة سلطاننا الحالى كريم الشيم سيدي محمد بن مولانا يوسف أبد الله نصره وزاده مجداً وفخراً . ثم وما قلناه من أن الترف يعد مشجعاً للاداب والعلوم والمخترعات والفنون وان الامراء كانت تعرف ذلك وتعمل عليه في مختلف العصور هو الذى ينبغي أن يفسر به ما نقله المؤرخون وغيرهم عن بعض خلفاء بني العباس كالمنصور والرشيد والمامون سقى الله عهدهم من أخبار مشوهة عن حياتهم الخاصة وبيأتهم المنزلية هى على رغم مبالغة الروات فيها لا تتفق مع مبدء الاسلام وقانونه الاعلا ومع ما كانوا يشغلون من مركز الخلافة وعرش الامارة والسلطان زيادة على أن هذه الاخبار وضع الكثير منها لاغراض سياسية

واسباب خاصة وكانت نتيجة طبيعية لذلك الخلاف الذى كان قائماً بين شعوب الاسلام عموماً وبين شيعة الامويين مع شيعة العباسيين خصوصاً . مع أن بعضهم إذ ذاك كان يظن أن وضع قصص يشتغل بها الناس وتكون لاهية لهم عن الخوض في سياسة الامراء والكلام فيما شجر بين الصحابة رضي الله عنهم هو شيء يصلح به الدين ويستقيم الملك والسلطان ولا عليه بعد ذلك ان هو شوه التاريخ ووضع الأخبار طبق هواه وكما يشتهي ويدلنا على أن هذه الفكرة كانت شائعة في الوسط العباسى لاقصى حد نسبة اكثر ما الف من القصص سواء كان مجموعاً على حدة أو مفرقا فى الكتب الى عصر بنى العباس أو ما يقرب منه كفتوح الشام وفتوح اليمن وفتوح مصر وكتاب الف ليلة وليلة وكتاب قصة عنترة العبسى وسيرة الامير حمزة البهلواني وان كان هناك من يقول ان كتاب الف ليلة وليلة ترجم عن الفارسية ولكن ما فيه من الأخبار يكذبه على أننا لا ننزه خلفاء بنى العباس عن كل ما نسب اليهم فى هذه الأخبار وانما نعتقد أن اكثرها مبالغ فيه للاسباب المذكورة أو غيرها مع تبوت الأصل والاعتراف بالمجموع وهذا المجموع هو وان دل على شيء فانما يدل على ترف الملوك وتجاوزهم حد السخاء الى حد التبذير ولكن هذا فى نظرنا هو ما جعلهم

خالدين على الأجيال وبوأهم منصة الشرف الابدي على السنة الفنانين والأدباء والعبقريين والنبغاء . حدثنا الاغانى عن الاصمعي قال دخلت أنا واسحاق الموصلي يوما على الرشيد فراينا لقيس النفس فانشده اسحاق يقول

وآمرة بالبخل قلت لها اقصري
فذلك شيء ما اليه سبيل
أرى الناس خلان الكرام وَلا أرى
بخيلا له حتى الممات خليل
وانى رأيت البخل يزرى باهله
فاكرمت نفسى أن يقال بخيل
ومن خير حالات الفتى لو علمته
إذا نال خيراً أن يكون ينيل
فعالى فعال الاكثرين تجملا
ومالى كما قد تعلمين قليل
وكيف أخاف الفقر أو أحرم الغنى
ورأى أمير المومنين جميل

قال فقال الرشيد لا تخف إن شاء الله ثم قال لله در أبيات تاتينا بها ما أشد اصولها وأحسن فصولها وأقل فضولها ثم أمر له بخمسين الف درهم فقال له إسحاق وصفك والله يامير المومنين

لشعرى أحسن منه فعلام آخذ الجائزة فضحك الرشيد وقال اجعلوها لهذا القول مائة الف درهم قال الاصمعي فعلمت يومئذ أن اسحاق أحذق بصيد الدراهم منى

وحدثنا الاغانى أيضا في الصحيفة العاشرة من الجزء الخامس عن إسحاق الموصلي قال قال أبى خرجت مع الرشيد الى الحيرة فساعة نزل بها دعا بالغداء فتغدى ثم قال فاغتنمت قائلته فذهبت فركبت أدور فى ظهر الحيرة فنظرت الى بستان فقصدته فاذا على بابه شاب حسن الوجه فاستاذنته فى الدخول فأذن لى فدخلت فاذا جنة من الجنان فى أحسن تربة وأغزرها ماء فدخلت فقلت لمن هذا البستان فقال لبعض الاشاعثة فقلت له أيباع قال نعم وهو على سوم فقلت كم بلغ فقال أربعة عشر الف دينار قلت وما يسمى هذا الموضع قال شمارى فقلت

جنان شمارى ليس مثلك منظر لدى رمد أعيى عليه طبيب
ترابك كافور ونورك زهرة لها أرج عند الدنو يطيب

قال وحضرتنى فى غنائه صنعة حسنة فلما جلس الرشيد وأمر بالغناء غنيته به أول ما غنيت فقال ويلك وأين شمارى فأخبرته القصة فأمر لي باربعة عشر الف دينار وغمزنى يحيى فقال خذ توقيعه بها الى وَتشاغل الرشيد عنى فأعدت الصوت فقال ويلكم أعطوا هذا دنانيره فوثبت وَقلت ياسيدى وقع لى

بها إلى جعفر ابن يحيى فقال افعل ووقع لى بها اليه فلما حصل التوقيع عند جعفر أعطانى المال وخمسة آلاف دينار من عنده فلما حصل المال عندى كان أحب الى وأحسن من شمارى

السنا نرى الرشيد مترفا ومتجاوزاً للحد فى الذى فعل مع إبراهيم وابنه إسحاق فى الحديثين السالفين ولكن لولا هذا الترف من الرشيد أنراهما يضعان فن الموسيقى علماً جديداً و يبلغان فيه بعد حد النضوج وحد النهاية والكمال حتى يمدحا بحضرة الأمير وفوق بساطه ويثيب الأمير مادحها بخمسة آلاف دينار

ما لابراهيم فى العلـ ـم بهذا الشان ثاني
إنما عمر أبى إســـ ـحاق زين للزمان
منه يجنى ثمر اللهـ ـو وريحان الجنان
جنة الدنيـا أبو إسـ ـحاق فى كل مكان

وحتى رثى الشعراء الموصلي يوم موته بما يزيد على مائتين قصيده حسبما ذكر ذلك الاغانى في ترجمته منها

تولى الموصلي فقد تولت بشاشات المزاهر والقيان
وأي بشاشة بقيت فتبقى حياة الموصلى على الزمان
ستبكيه المزاهر والملاهي وتسعدهن عاتقة الدنان

ومنها

ستبكيه اشراف الملوك اذا رأوا محل التصابى قد خلا منه جانبه

ويبكيه أهل الظرف طراً كما بكى عليه أمير المـــومنين وحاجبه

أترى الموصلى يبلغ هذه المرتبة الرفيعة فتبكي لفقده الاوساط الادبية والمجالس السلطانية و يترجم عن ذلك الشعراء الذين هم لسان الامـة وقيتـارتها الداوية فى كل الاوسـاط تلك التي تسجل بمهارتها العليا أنغام سرورها والحان آلامها وأحزانها أترى ذلك كله يكون لولا أن الموصلى بلغ حد النضوج فى فنه الجديد فرضي عنه جميع الطبقات واكتسب عطف كل إنسان وتقديره وما كان الموصلى فى نظرنا يصل لـذلك لولا سخـاء الأمراء وترف الملوك هذا السخاء الذي يجعل آداب كل أمة يوجد فيها طافحاً يوحى العبقرية والنبوغ وموشى برمز التفوق وشارات الخلود

ثم وكل هذا الذي وصفنـاه هـو النتيجـة الحسنـة للترف وان كنـا نعتقد كما قلنا فى صـدر المقال أن له ضرراً بالغاً ينتهي بالامة الى الانحطاط والتأخر هـذا الضرر الذى كنا نجهل كيفية حدوثه والطريق التي ينتشر بها فى الامة المترفة ولكن علم الحياة أي البيلوجية قد زودنا الآن بتفسير دقيق بـين لنا تعليـل هـذه الظـاهرة الاجتماعية بوضـوح فهو يفهمنـا أن الارض الخصبـة الطيبة التربة إذا زرعتهـا ببزر حسن لا بد من أن تاتى تلك الارض فى أعوامها الزراعية الاولى بما هو أحسن من ذلك البزر واغلا منه قيمة ثم اذا واليت زرع ذلك البزر نفسه فى تلك الارض

أعواماً أخرى لا بد من أن ينحط وتتأخر قيمته وهذا بخلاف ما اذا زرعت ذلك فى أرض ضعيفة قبيحة التربة فانه يبقى على حالته لا يكاد يتحسن ولا يكاد ينحط الا اذا نقلته الى الارض الخصبة فبزر الارض الحسنة يزكو أولا ويربو ثم اذا واليت زرعه فى نفس تلك الارض يقبح وينحط وهذا بخلاف الأرض الضعيفة فان بزرها يبقى على حالته واذا نقلته الى الأرض الخصبة يزكو ويحسن وما السبب فى ذلك الا أن الأرض الخصبة تنبت ضعيف البزر وقويه فاذا واليت جعله فيها صار كله ضعيفا وهذا بخلاف الأرض المنحطة فانها لا تنبت الا القوي ولا تبقي على الضعيف فاذا نقلت بزرها الى الأرض الخصبة كنت وقد نقلت القوى فقط فاتى زكياً رابياً

وكذلك الحال فى الامم فان الترف اذا انتشر وعم كل افراد الامة حسن العيش وكثر النعيم وتمتع الاغنياء والفقراء واخذ كل يبني القصور الشاهقة ويلبس الثياب الفاخرة ويبالغ فى النظافة والاستحمام واذ ذاك تقل الوفيات ويكثر ضعفاء الجسم وضعفاء العقول

وهذا بخلاف ما اذا كانت الامة بدوية لا تعرف الترف والنعيم والرغد وهناء العيش فانك لا تجد فيه الا قويا صلداً سالم الصحة من كل عيب . ذلك أن الضعفاء لا مجال عندهم

للعيش فهم لذلك يموتون بخلاف ضعفاء الامة المترفة فان المجال عندهم واسع والحضارة تحميهم . ومعنى هذا أن تنازع البقاء يشتد بين أفراد الامة الغير المترفة اذ ليس لديها من وسائل الحضارة والمدنية ما يبقى على الضعفاء فيها فهى كالبلد الغير الخصبة التي لا تترك الا القوي ولا تنبت من البزر الا الحسن وهذا بعكس الامة المتحضرة المترفة فانها تبقى على القوى والضعيف ولكل فيها مجال فهى بمنزلة الارض الخصبة التى تنبت لكثرة عناصرها الغذائية الجيد من البذور والردىء فيؤل ذلك الى التأخر والإنحطاط والكل بيد الله

7579

تنبيه

وقعت بعض اغلاط ينبغي اصلاحها قبل درس الكتاب منعا للالتباس

صحيفة	سطر	خطا	صواب
2	7	القاره	القارىء
3	11	يتغدا	يتغدى
6	10	فيقره	فيقرأ
9	12	تخطوا	تخطو
11	19	مونتك	مؤنتك
16	4	استاصلهم	استأصلهم
16	15	ان تاثر	ان تؤثر
19	14	ماخذ	مأخذ
19	18	اولائك	اولئك
20	17	الاهوتيين	اللاهوتيين
23	7	لا ينم	لا يتم
26	2	من الدعى	من ادعى
32	12	ولا كن	ولـكن
33	17	مهموما الا	مهموما الى
45	18	قره	قرأ
46	13	المراة	المرأة
47	12	المثين	المتين
47	18	الرئق	الرائق
58	2	فاهاؤلاء	فهؤلاء
60	19	حادثه طولا	حادثه طويلا
61	13	ومأت	ومئات
75	3	ويطفوا	ويطفو
79	1	والزراويق	والزواريق
79	3	لم تاثر	لم تؤثر
80	6	للغرر	لغرر
89	17	تبوت	ثبوت

WERT
BOOKBINDING
Grantville, Pa
MAY-JUNE 1992
We're Quality Bound

Princeton University Library
32101 060155551